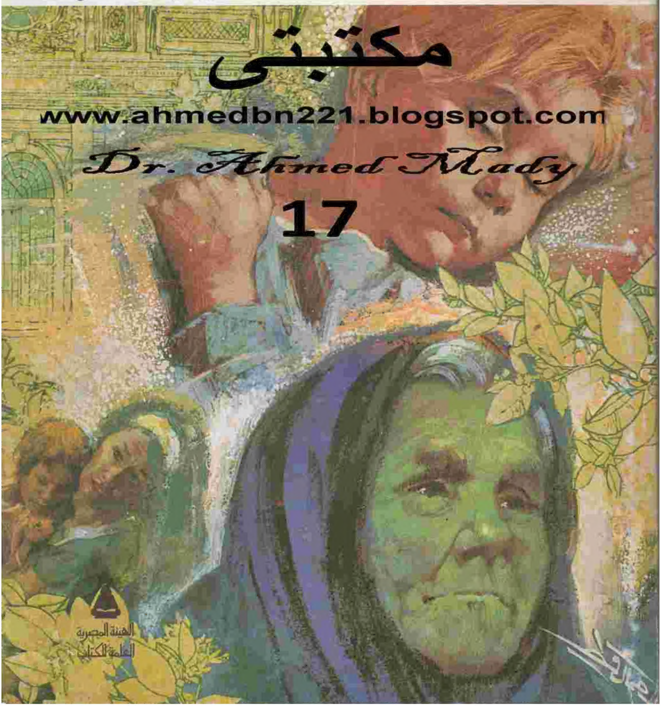
مكتبة الأسرة ١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

الدساس

خيرى شلبى



Tuse 25/8/2009
Riyadh



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدساس

(قصص)

خيري شلبي

خيرى شلبى

مواليد ٣١ يناير عام ١٩٣٨ .. قرية شباس عمير مركز قلين محافظة كفر الشيخ .

له ستون كتابا . . ما بين روايات وقصص قصيرة ودراسات نقدية وتاريخية وتحقيقات أدبية ووجوه فنية .

رئيس تحرير مجلة الشعر منذ عشر سنوات وحتى الآن .

كاتب متفرغ ، يكتب بانتظام لمجلة الإذاعة والتليفزيون وجريدة الأسبوع . . وجريدة القدس العربية .

حصل على جائزة الدولة ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠ .

من رواياته : الأوباش ، السنيورة ، الوتد، فرعان من الصبار ، الشطار، وكالة عطية، العراوى، ثلاثية الأمالى، موال البيات والنوم، لحس العتب ، بغلة العرش.

من مجموعاته القصصية : سارق الفرح، صاحب السعادة اللص، المنحنى الخطر، أسباب للكى بالنار.

من كتبه فى الدراسات : محاكمة طه حسين، دراسات فى المسرح المصرى المعاصر، لطائف اللطائف ، أبو حيان التوحيدى، وغيرها .

رسالة الحائط الرطيب

نحيف القوام مهزول البدن مزهق النفس على الدوام. يطل من عينيه شقاء ووجع مريرين، فيهما بريق استهوال كأنه الخَّط فجأة بين عصابة من اللصوص الخطرين فتجمدت في عينيه نظرة الاستهوال المبطن بدهشة مع حقد مع حسد مع ظل من البلاهة الماكرة، نظرة من يريد ولو لَحْسة من السريقة جزاء سكوته على ما رأى.

ذلك هو وجيه ابو وهدان. أصله من مدينة المحلة الكبرى، شغلته فى الأصل حلاَّق، له محل فى شارع السوق أهم شارع فى المدينة. لكنه يتعشق تأليف الأغانى. من أجلها داوم على هجر الدكان ومدينة المحلة. بات كلما توفر لديه مبلغ ركب إلى القاهرة، فيتجه مباشرة إلى حديقة معهد الموسيقى فى شارع الجلاء، يعرض على الصحبة أغنياته، يتصيد المطربين والملحنين ليُسمعهم هذه التآليف، لكن بصنعة لطافة.

حيلته فى ذلك من أعجب ما يمكن..

فلقد هجر الدكان أى نعم، ولكن عدّة الحلاقة دائما معه. حقيبة منفاخ كانت أنيقة ذات يوم قبل أن يلقيها سوء حظها بين يديه يحشر عدة الحلاقة كلها بفوطتها فى جيب منها، وفى جيب آخر دفاتر وأوراق مكتظة بالأغنيات، وفى جيب ثالث قميص وجورب وغيار داخلى. ومن طرائف هذه الحقيبة أنها حين تفتح

على جيب معين فإنها تبدو كما لو كانت مجرد هذا الجيب وحده فقط، أما هو نفسه فإنه يجتهد فى أن يكون على الدوام نظيفا إلى حد مقبول، فالبنطلون من صوف الفانلة هو هو لكنه دائما مكوى، وكذلك القميص الأبيض ذو الكم المشمّر الأساور عن ساعة «چوفيال» عتيقة فى معصمه الأيمن تمشياً مع تقاليد الشواذ المخافين للتقاليد من أهل الفن والمجتمع.

موهوب الملامح، ما أن تقع عيناك على وجهه حتى ترثى له تشفق عليه وعلى حماسه. لا تلبث حتى تتعاطف معه، إذ هو على الأقل تعشق طريقا جميلا فى حين يتعشق أمثاله المكاسب والشطارة.

بارع فى التعرف على كبار الملحنين والمطربين، والتقاط أخبارهم من كل مصدر، وتسقّط أنباء زيارتهم المرتقبة للمكان الفلانى : سيعمل بروڤة فى نادى نقابة الموسيقيين يوم كذا الساعة كذا، سيكون فى المعهد بعد ساعتين من أجل كذا، سيكون عند الترزى يوم كذا .. هكذا يمكن أن يجيبك إذا سألته عن أخبار أى مطرب أو ملحن.

يرى أن حديقة معهد الموسيقى هى أنسب مكان للتلاقى، فهى المكان الوحيد الذى يملك مبررا لاقتحامه فى أى لحظة والإنتظار فى حديقته الواسعة. إنه قد يجد الشخص المرجو فجأة جالساً بجواره أو قبالته يشرب فنجان قهوة. حينئذ يبدو

على سحنة وجيه أبو وهدان هدوء وثقة، عدم رغبة فى المطاردة، فيأمن له النجم المرجو يوقن أنه جالس مع رجل وقور متزن لن يطلب منه خدمة لن يلح عليه فى شىء أو يزعجه بثرثرة فارغة. لا يجد النجم غضاضة فى أن يبادله الحديث والتعليقات حول ظواهر عامة، وإذ يتأكد أن هذا الشخص غير متكالب عليه غير مراقب له فإنه يصير على سجيته يلتزم جانب اللطف مع جليسه، فالنجم دائماً أبداً لا يهتم إلا بمن يظهر له عدم الإكتراث به.

لكن، يؤتى الحذر من مكمنه كما يقول المثل. إذ أن وجيه ابو وهدان يكون قد دخل بالفعل من باب آخر لا يتوقعه أحد رغم أنه بات ظاهرة متكررة بالنسبة لمعظم نجوم الموسيقى والغناء ممن يرتادون حديقة معهد الموسيقى. يتسلل وجيه ابو وهدان بالحديث حول تسريحة شعر النجم، وكيف أنها غير متسقة مع شكل وجهه الجميل، وأن الفورمة المناسبة له هى هذه، ويريه صورة للتسريحة فى كتالوج مطبوع. ومهما كانت رغبة النجم فى تقفيل الحديث قوية باترة فإنه سيفاجأ بعد دقائق أنه قد صار يتفرج على الكتالوج فى شغف. وبعد دقائق أخرى سيفاجأ بأنه قد جلس فى الوضع المناسب والتفّت فوطة الحلاقة حول رقبته وصار تحت الماكينة والمقص والموس بالفعل.

تقع الضحية فى المصيدة فليس أمامها ثمة من مفر، فيشرع وجيه ابو وهدان فى تسوية ضحيته على نار هادئة، يلقى على

سمعه كل ما تحتويه جعبته من أغنيات على درجة كبيرة من الطرافة. فى تسعين فى المائة من هذه الحالات لن تشعر الضحية بالضجر إلا إذا كانت مرتبطة بموعد عاجل. فيما عدا ذلك فإن الرجل سيجد أن تعديلا جوهرياً قد حدث بالفعل فى تسريحة شعره بلمسات بسيطة سريعة مدربة. سيجد كذلك أن الكلمات التى يستمع إليها لا تخلو من أفكار وجيهة طازجة فى كل الأحوال، وبعض العمق أحياناً، ودربة على النظم الموزون، وبراعة فى استجلاب القوافى الغريبة التى لا تخطر على البال لأول وهلة، والتى لو سمعتها وحدها لا ستتنكفت ورودها فى أغنية. ثم إن أغنياته تختلف عن أغنيات معظم الهواة المترددين على حديقة المعهد، إذ أنها تدور حول فكرة أو لمحة أو موضوع يكون فيه منفذ لورود الحب والكلام عنه بلهجة فيها جرأة وواقعية، فى معالجة فنية يغلب عليها السذاجة، لكنها السذاجة اللطيفة المغرية بترديد الكلام.

لهذا كان من السهل أن تصل كلماته فى بحر سنوات قليلة جدا إلى حناجر بعض مطربى الدرجة الأولى. إشتهرت له أغنية اشتغلت كثيرا فى حفلات أضواء المدينة بصوت مطرب شعبى مرموق، كانت الجماهير تطلبها منه - وبإلحاح- فى كل حفل.

بعدها أصبح يزور حديقة المعهد كواحد من المشهورين المرموقين. تنازل عن عدة الحلاقة مؤقتاً، لم يتركها، إنما أغلق

الجيب الذى يحتويها فلم يعد يفتحه قط إلا فى حالات نادرة حيث يقع أحد النجوم فى زنقة موعد أو تصوير فيطلب إليه رفع لحيته بسرعة. لكن مظهره بقى كما هو لم يطرأ على حالته الإجتماعية أدنى تغيير وإن قويت عينه وبات إذا جلس يضع ساقاً على ساق.

لم يكن ذلك عن غطرسة أصيلة فيه، إنما هو مدفوع إلى ذلك دفعاً، للدفاع عن نفسه ضد نبرة من الإستهتار الخفى باتت تجابهه من رهط ممن أطلقوا على أنفسهم شعراء العامية، فارتبطت أشعارهم بشعارات الاشتراكية والنبرات الخطابية الزاعقة، شاعت فيها مفردات كالخطاوى والغناوى والأسمرانى والأخضرانى وما إلى ذلك. أحيانا كانوا يجاهرونه برأيهم فى أن «المرحلة» لا يجب أن تتسع لأمثاله من الذين يكتبون شعبيات لا فكر فيها ولا ثقافة وراءها فهى إذن ضد الفلسفة الاشتراكة التى تنتهجها البلاد فضلاً عن أنها مدمرة للذوق العام. فيطاولهم برأيه فى أن الاشتراكية يعنى أن تأخذ كلماته هذه وأمثالها طريقها إلى الآذان وهى أخذته بالفعل شاءوا ذلك أو أبوه. وقد تلقى منهم صنوف الكبر والاستعلاء والعدوانية حتى لكأنه حشرة يتأففون من منظرها يعملون على سحقها. نجحوا فى الاستيلاء على الفرص الثمينة لأنهم كانوا بالفعل وقوداً للمرحلة فأفلحوا فى أن يكونوا تمثيلا لها بأى شكل وعلى كل لون. المرحلة كانت

فى حاجة لأبواق، والأبواق فى احتياج للشهرة والمال والنجومية، فالصفقة إذن متوازنة. بشكل أو بآخر سيطروا على مشاهير الملحنين الذين لهم نفوذ كبير على الأصوات والميكروفونات، والذين هم بدورهم جزء لا يتجزأ من الصفقة. امتلأ الأثير بكلمات ذات نزعة شعارية، أو عاطفية مجنحة، أو فولكلورية بصياغة جديدة مسبوكة مائعة. أما هو - وجيه ابو وهدان- فقد كان أقرب إلى الفولكلور من حبل الوريد، هو الفولكلور بكل عبله الجميل الصادق: الخشونة والتلقائية المفرطة فى العرى من أى تزويق أو تجميل أو إسقاط وإن كانت أعماله مع ذلك لها أبعادها العميقة ولكن فى حدودها الإطارى ككيان مستقل قائم بذاته.

كان يضيق بزيف القاهرة وعدوانيتها الشديدة، فيهرب إلى المحلة الكبرى يلتمس فيها أمنا ورزقا من صنعته. فما يلبث حتى يضيق بالمحلة الكبرى وعالمها المحدود، يشعر بعمق الاغتراب، فيشد الرحال إلى القاهرة. كان بالفعل منبت الجذور حقاً، يلفظه مجتمع المحلة العملى الصرف، المنغمس فى ماكينة العمل بلهاث لا ينقطع، ويستعلى عليه مجتمع القاهرة الزائف بطراويسه المدربين على شغل الحواة ولاعبى الثلاث ورقات ودهن الوجوه بالمساحيق والبويات، حيث يعيش كل واحد بشخصيتين وربما أكثر.

كثيراً ما اختفى تماماً، لأوقات طويلة لا يظهر فى أى مكان.

ولأنه لم يعدم المحبين والمتعاطفين فإن الشعور بغيابه يكون دائماً قوياً، لدى الجميع فى غالب الأحيان. فمستلطفوه يشغلهم الاطمئنان على أحواله، ورافضوه يشغلهم الاطمئنان على اختفائه النهائى كأنه العقبة الكأداء فى طريقهم.

هو أيضاً من الذكاء والنماحية على قدر كبير. يعرف جيداً من يستلطفه فيسقط عليه فجأة ليمكث معه وقتاً طويلاً يعطيه تقريراً مفصلاً - فهو مغرم بالتقارير المفصلة - عن أخباره وأحواله، ويعرف كذلك من يرفضه فيمر عليه مرور الكرام لا شيء إلا ليكيد له بإشعاره أنه موجود على قلبه لم يمت بعد ولن يموت بعد ولن يموت حتى وإن لفظ أنفاسه، هكذا كان يقول لرافضيه، ويضيف قائلاً إنهم مؤقتون لأنهم أبناء مرحلة أما هو فباق لأنه ابن الذوق الشعبى الأصيل. ولربما يتذكره أحدهم فصيح فجأة: «هو الولد وجيه ابو وهدان مش باين ليه بقى له مده!»، فإذا به يكتشف بعد برهة قصيرة أن وجيها يجلس خلفه مع مجموعة أخرى أو ربما وحده. لقد كان فى الواقع لا يخلو من إشعاع وشفافية كبيرين.

وبالنسبة لى شخصياً كنت أحبه، وأفتقده، وأطرب لكلماته، أنجذب لأفكاره الجنونية المحطمة لكل الأعراف والتقاليد الكتابية، تسخر منها، تمسخها، تحاول إقامة بنيان جديد مختلف، يستنكره الذوق المستقر لكنه بعد التفكير فيه يكتشف

أن له منطقه الخاص الذى لا يخلو من وجاهة فنية. فإذا كانت الأغنيات الدارجة تجعل من القلب بيتاً يسكنه الحبيب، فما المانع أن يجعله هو شوارع وحارات يسكنها الحيارى فى دنيا الحب والغرامَ.. إلخ.. إلخ.

كثيراً ما تذكرته خلال الغياب فإذا هو يطب علىّ فجأة فى مكتبى فى «الجرنان» كأنه سقط من خاطرى مجسداً. وأحيانا أخرى يختفى حتى من الذاكرة فلا يطفو عليها إلا عندما أستمع لأغنيته الشهيرة فى الراديو فى لحظة عابرة.

ثم مضت سنوات طويلة لم أره وإن تذكرته كثيراً، فاشتقت إليه بالفعل. سألت عنه فى جميع مظانه فلم أظفر بطائل، حتى يئست من ملاقاته. إلى أن وجدتنى ذات يوم في المحلة الكبرى أجمع مادة موضوع أكتبه للجريدة عن لفيف من أدباء المحلة الشبان من أبناء المجتمع العمالى الصرف.

لم أجد عناءً فى الوصول إلى صالونه الشهير فى شارع السوق الحافل ليل نهار بحركة لا تنفد ولا تهمد. يقع الصالون بين محلين أحدهما بقال والأخر معرض لأحذية مغلق بباب زجاجى. تحت الرصيف تمتد على الجانبين عربات الخضر والطعمية والفول وأدوات التنظيف والأدوات المنزلية. كأى صالون حلاقة عتيق فى أى مدينة صغيرة كان هناك ستارة من الخرز فى حبال طولية تتخابط فى بعضها من شدة اهتزاز.

الأرض تحت عجلات السيارات وأقدام الوافدين والراحلين. منظر الصالون يبدو أنه مدهون حديثاً باللون السماوى الفاتح فى الداخل، وبدرجاته الفامقة على الواجهة. ثمة لافتة كبيرة على الباب:[صالون الحرية]. نظرت فى الداخل، يوجد ثلاث كراسى ثمينة متجاورة تلمع بمساند شامخة ومقاعد وثيرة. خلفها- لصق الحائط- صف من الكراسى الجلدية المريحة. الحوائط كلها مكسوة بالمرايا حتى ما فوق القمة. كراسى الحلاقة وكراسى الانتظار كلها مشغولة.

دفعت رأسى بين حبال الخرز. قلت:«السلام عليكم.. نعيماً مقدماً». ردوا جميعاً:«أنعم الله عليك». قلت:«هذا فيما أظن صالون وجيه ابو وهدان!». مرت لحظة صمت مشوب بالترقب الغامض. كان من الواضح أن الأسطى الواقف على الكرسى المحاذى للباب هو الأسطى ها هنا. تقهقر عن قفا الزبون، حاذانى قائلاً: «حضرتك تطلبه فى شىء؟!». قلت فى شىء من المرح تاركاً حبال الخرز تنثال على كتفى:«إنه صديقى وأنا صحفى من القاهرة جئت فى مهمة فأحببت أن أراه!». إختفى التوجس من ملامحه، صاح: «أهلا وسهلاً! هو سيكون هنا بين السادسة والسابعة! إنه الان فى السوق! له زبائن خصوصيين يمر عليهم فى محلاتهم وبيوتهم!»، ثم استأنف الحلاقة للزبون بالمقص والمشط. شكرته وخرجت. ملت على البقال أشترى علبة

سجائر. كان وحده مرتكنا بمرفقيه على البنك. رأيت فيه شاباً بشوشاً طفولى الوجه إلى حد كبير، ولولا عينان بارزتان فى وجهه الأبيض المحمر، مليئتان بالخبرة والعذاب والتجربة لقلت إنه طفل متضخم الجسد. فلما اعتدل واستدار ليأتى بعلبة السجائر رأيت جسده القصير مثل رأس الفجلة، رفيع من أعلى تخين من أسفل. وإذ انحنى على درج الفكة ليجمع لى بقية الجنيه وجدتنى أقول له:« أستطيع أن أرى وجيه ابو وهدان أو أترك له رسالة؟». فرفع وجهه عن درج الفكة ناظرا فى وجهى باهتمام وتدفق شديدين، مد ذراعه السمينة إلى جواره فرفعها بكرسى دائرى صغير بدون مسند، قدمه لى: «تفضل اقعد!». فتفاءلت خيراً وجلست بجوار البنك - سلمنى بقية الجنيه، ثم فتح الثلاجة الثلجية الحمراء وأخرج زجاجة اسباتس خضراء مغبشة، فتحها، قدمها لى: أهلاً وسهلاً.

قدمت له نفسى، فعاود الترحيب بى، قال إنه خدامى فتحى المُلاَّ، من هواة الشعر والزجل، جاءته الهواية من الورق الذى كان يشتريه بالطرناده ليبيع فيه، فلما جذبه الورق تصفحه، فلما تصفحه عرف فيه الشعر، فأحبه، جاء عليه وقت لم يكن يتكلم فيه مع الزبائن إلا بالشعر، هم يطلبون بالنثر وهو يرد عليهم بالشعر، وكان سريع البديهة، لكنه اضطر إلى إبطال هذه العادة بعد أن اتضح له أن معظم الزبائن يتضايقون من قفشاته

الشعرية إذ يفهمونها خطأ. قلت له:

– «هل أنت واثق أن وجيه ابو وهدان سوف يأتى؟!»..

قال فى براءة:

– «على كل حال هو ابن حلال مصفى! إنه غريب الأطوار! أحياناً يكون على موعد معى ويتصادف أن يجىء قبله من يسأل عنه قاصداً به أذى! فإذا به بقدرة قادر لا يحضر فى موعده بل ربما يتأخر أياماً! وأحيانا أخرى يطب فجأة بدون موعد ليجد فى انتظاره من يبحث عنه لمصلحة!! إنه جدع غريب وبائس لكنه طيب القلب فنان!»..

مدفوعا بنوع من الفضول قلت:

– «الصالون المجاور لك! صالونه فعلاً؟!»..

تردد برهة ثم قال:

– «قلت لحضرتك إنه بائس! الأيام لطشت معه كل التلطيش! كله من قر الناس عليه من يوم ما اشتهر كمؤلف غنائى! بدأ يهمل الصالون ظل طول الليل يدخن الحشيش يسرح فى دنيا الخيال يصطاد الأفكار التى لابد أن تكون كما يقول حديثه غير مسبقة! زوجه المسكينة صبرت عليه كثيرا! الأهل والجيران اعتقدوا أنها أصبحت زوجة النجم المشهور الذى لا يكف الراديو عن إذاعه اسمه فأىّ عزّ ونغنغة! فى حين أن المسكينة لا تجد قوت يومها إلا بصعوبة!! المهم! قام الخلاف بينهما!! هى

مهما كان الأمر غلطانة!! كان يجب أن تصبر قليلاً حتى يستقر فى مستقبله وكانت ستأكل الشهد! إن طريق الفن طويل يا استاذ وأنا أعرف! الشاهد! أخذت أولادها وتركته إلى بيت أبيها! ركبت رأسها! هو الآخر ركب رأسه أكثر وأكثر!! قام بتأجير الصالون للصنايعى الواقف بجوار الباب! صاحبنا عمل اصلاحات وجدد العفش واستوطن فى المحل! عاد وجيه يلف بالعدة مثلما كان يفعل أبوه قبل أن يشترى هذا المحل منذ خمسين عاما! اليوم هو لا يستطع إخلاء هذا المحل! إذ هو ولد لبط وخربوش! وطريق الفن حتى الآن غير مضمون لوجيه ابو وهدان! يعنى لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن! إنه بائس والله يا أستاذ ويستحق عون الصحافة!!»..

كتمت ضحكتى، صرت أتحين الفرصة لإنهاء الكلام والانصراف، حيث صار من الواضح لى الآن أن وجيه ابو وهدان ليس فى حالة تليق باستضافة أحد. نظرت فى ساعتى:

- «على كل حال إذا ...»

فإذا بالبقال يهتف فى فرحة طاغية:

- «وصل! كلا كما ابن حلال! تعال ياعم!»

استدرت ناظراً إلى الباب. كان وجيه ابو وهدان مقبلاً فى خطو بطىء، ناحل الجسد، ليس فيه سوى عينين تبرقان فى ترقب وتحد شديدين، يحمل حقيبة العدة، نفس الحقيبة التى

يجيء بها إلى القاهرة. وضعها على البنك وعانقني، أمعن في الترحيب بي. غمزت له بعيني غمزة يفهمها، صاح:

– « ماله! عن إذنك يا فتحي! يلاً بينا!»

– «نهاركم ابيض!» هكذا قال فتحي البقال..

عبرنا الشارع في ترق، ومنه إلى شارع جانبي أقل زحاماً، ومنه إلى الخلاء، فالمزارع الشاسعة. هناك في سفح طريق زراعي هبطنا إلى عشة صغيرة كالخص مبنية بالبوص والحصائر. جلسنا على دكة خشبية. كان في استقبالنا رجل ممصوص الدم شاحب الوجه منتفخ العينين. جهز لنا الشاي الأسود الثقيل، وحجارة التبغ المعسل، أقعى أمامنا بالجوزة وراح يسقينا أنفاس الحشيش في تمهل وهدوء أعصاب. قرص الشمس كان في مواجهتنا قد صار كرة من اللهب الأحمر يتناثر منه فتات على حجارة التبغ تلمع تطقطق تحت أنفاسنا. احلوت المسائل كلها. أسمعني وجيه حوالي عشرين قصيدة غنائية في خيط واحد، في إلقاء كالتبتل والتهجد. أكبرته، إذ لاحظت أنه لأول مرة يلقي شعراً لغيره من الشعراء كلها تمجيد في الثورة الاشتراكية،، وتجسيد للحلم الشعبي الإنساني في غد مزهر، كلماتها مليئة بالمداخن والمآذن والمشربيات والحقول الخضراء.

من فرط استمتاعي وشغفي أهز رأسي طرباً :الله الله الله! يا سلام!.. ذلك أنه قد وقر في ذهني لحظتها أن وجيه ابو وهدان

قد اتسع مخه وصدره وتذوقه فأصبح يُلقى شعراً لغيره يستحسنه، واندهشت كيف أتيته هذه القصائد الجديدة الطازجة التى لم أقرأها من قبل. قلت مبديا إعجابى:

- «ظاهرة طيبة أن تحفظ شعراً لغيرك وتردده!».

لمع في عينيه احتجاج كبير:

- «غيرى مين يا عم؟! هذه كلماتى أنا! شعرى أنا!!».

قلت فى غير تصديق:

- «هذا اللون جديد عليك!!».

قال فى وعى حسدته عليه:

- «المهم أن يكون لونا أصيلاً وليس طلاءً متقناً!!» تفكرت لبرهة طويلة. استعدته بعض مقاطع، تمعنتها جيداً، وجدت اختلافاً كبيراً بالفعل بينه وبين شعراء العامية الذين حظوا بشهرة عريضة فى القاهرة، فى الأسلوب، المفردات، زاوية الرؤية، الأشكال الموسيقية. هنا مفردات المدينة الإقليمية، العمالية الفلاحية معاً. هنا خيال ساذج رائع السذاجة، غفل من الحشو الثقافى التقليدى، وبالأخص الثقافة الاشتراكية كما أن الكلمات تخلو تماماً من الشعارات المصكوكة التى شاعت فى منتصف عقد الستينات الذى يُقترن فى أذهاننا بالهزيمة.

رحت أحدق فى عينيه كأننى أحاول التعرف عليه لأول مرة:

- «أنت إذن مؤلف هذه الأشعار! الغريب أن أغنياتك السابقة

كانت خفيفة جداً! وجانب الطرافة فيها هو الأقوى! فما سر هذا التحول المفاجىء؟!».

ضحك ضحكة مكدودة مرهقة، بانت لها سن ذهبية كامنة فى جانب من الفك السفلى الأيمن. قال بصوت متهدج:

- «أنا فى الأصل هكذا!! هذه هى أغنياتى الأصلية!! كتبتها قبل الأغنيات الخفيفة التى أذيعت واشتهرت!!».

هتفت مقاطعاً:

- «ولماذا لم تقدمها هى يا مجنون؟! لو قدمتها لكان لك الآن شأناً آخر! كانت كبَّرتك مليون مرة!!» .

فإذا به يكور شفتيه، ثم يطلق ضراطاً بذيئاً، تعقبه شخرة أشد بذاءة، ثم استدرك فى جدية أسيفة مريرة:

- «هذه الأغنيات كلها رفضتها لجنة النصوص فى الإذاعة بحجة أنها سوقية!! وكلما أسمعتها لواحد من المطربين أبدى إعجابه وقال: أنا عايز حاجه خفيفة تعلق مع الناس!»..

جمدتنى الدهشة، لأن الكلمات التى استمعت إليها لا يمكن رفضها بأى حال من الأحوال. وإذا به يستطرد:

- «كان فى استطاعتي أن أصر على تقديمها بإلحاح لكن ظروف النكسة وقفت ضدها وضد كل شىء جميل! الناس شبعت من هذا الكلام ولم تعد تصدقه! الناس الآن فى حاجة إلى من يداوى جراحهم! بنكته بقفشة بصورة هزلية! الفن الزائف

الهتّيف ضلل الناس ونفخ رجال الثورة صنع منهم أباطرة يتحكم كل واحد فى مكان كالأبعاديات فضاعفت البلاد بين الرؤساء كذلك انطمست وطنية الرئيس عبد الناصر تحت أقدام الرئاسات الزائفة! فلما انكشف المستور إذا بكل الأشياء شائهة! الذين غنوا للثورة حتى وهي تضربنا بالأحذية الثقيلة لكي يحققوا الشهرة والمال والجاه خنقوا صدرى! صرت أكتب كلمات هزلية أقصد بها الهزء بكل شيء فى الدنيا حتى بالشعر نفسه! صرت أكتب أشياء أهدر بها قيمة الشعر عامداً متعمداً!! أهينه! أزرى بكل أهدافه الإنسانية النبيلة!! كنت أتوقع أن يضربنى كل مستمع بالحذاء لكنى فوجئت بأن الجميع معجب بما أكتب إلى حد الجنون!! الناس أصبحوا يعشقون الهزل بصورة مخيفة!!»..

لاحظت أنه ممرور حتى مما يقول. سألته عن حياته الزوجية فقال إنها فشلت هى الأخرى كما فشلت الثورة فى تحرير البلاد. ثم زفر، وأشعل سيجارة، أسند رأسه المكدود على كفه وجعل يدخن بشراهة فائقة. أخيراً رفع وجهه بعينين حمراوتين كالدم، طلب عشرة حجارة على سبيل الختام. ثم ابتهج فجأة وهتف:

- « على فكرة! جئت فى وقتك! كنت أنوى أن أمر عليك وعلى بعض الأصدقاء فى الصحف لأكلمكم فى موضوع شديد الخطورة!!»..

- «لعله خير هذه المرة!؟»..

- «هو موضوع أحب أن أنوه عنه فى الصحف!»..

- «ما هو يا ترى؟!»..

- «لقد بدأت السماء تراسلنى!!»..

- «نعم؟!»..

- «أقول لقد بدأت السماء تراسلنى!!»..

- «كيف بحق الله؟! ليتنى أستطيع أن أعرف!»..

اشتدت حماسته. لمع فى عينيه بريق شديد النفاذ:

- «سأريك كل الوثائق! ستراها رؤية العين! وبما أنك صديق قديم وعزيز فإننى سأكشف لك السر الذى لا يصح أن أكشفه لأحد! إن الأسرار فى هذا الحياة لا يجب أن تقال لكل من هب ودب وإلاَّ كانت السماء قد راسلت كل الناس!! وبما أن السماء قد اختارتنى أنا بالذات لتبلغنى بالرسالة فإننى سأختار بعض الصفوة لأبلغهم مضمون ما وصلنى فلربما تعاونا جميعاً فى حل لغز الحياة وفض مغاليقها!!»..

- «من فضلك! أريد أن أعرف كيف تمت هذه المراسلة؟! وهل تقوم أنت بالرد على كل رسالة أم تكتفى بالتلقى فحسب؟!»..

- «إنها لا تنتظر منى رداً! إنها تنتظر منى أن أفهم فحسب: أفهم واستفيد بما فهمت!!»

- «أقول كيف؟!»..

- «سترى كل شىء بعينيك! سأجعلك تحاول القراءة بنفسك! لقد كنت على وشك الانتحار قبل أن توافينى هذه الرسالة فعلمت أنى على شىء كبير من الأهمية وأننى ربما ألعب دوراً فى حياة الناس على نطاق واسع أوسع من نطاق الشعر والأغانى والإذاعة! كل ما فى الأمر أننى أريد أن تساعدنى أنت وكل من يستطيع! لا أقصد التنويه فى الصحف فحسب! بل أن تعاونى أنت مثلاً فى قراءة مضمون هذه الرسالة وتساعدنى على تفسير بعض غموضها!! وعلى كل حال فإننى ماض فى قراءتها وفك رموزها يوماً بعد يوم! وحين أنتهى منها سأضع لها صيغة نهائية يمكن لأى واحد أن يقرأها ويفهمها!!»..

- «هل هى رسالة خاصة بالدين مثلاً؟ أو بالدنيا؟!»..

- «بالاثنين معاً! هناك نبوءة بتحول جذرى فى حياتنا! إذا انتبهنا إليها من الآن يكون من حسن حظنا قبل أن تضيع منا الفرصة فى تدارك الأمور!!»..

وشد النفس من الجوزة بشراهة تاركاً سحب الدخان تتدافع من منخريه فى غزارة.

صرت أنا فى حالة هى مزيج من الإثارة والخوف الغامض القابض للقلب. رحت أفكر فى طريقة أنسحب بها إلى موقف السيارات. إلا أنه نهض، فنهضت. صار يعبث فى جيوبه بحثا عن نقود، فسارعت إلى حافظتى وحاسبت الرجل صاحب

المطرح، ومضيت بحذاء وجيه ابو وهدان عائدين إلى المدينة التى بدت رغم أضوائها كتلة من الغموض الباعث على القلق.

بعد مسيرة طويلة صرنا فى شارع السوق. كانت الحركة قد هدأت فيه بشكل ملحوظ. أنوار خافتة تنبعث من لمبات داخل فوانيسه قديمة الطراز معلقة فى عواميد طويلة. الأرض زلقة موحلة من أثر باعة الخضراوات وعربات الرش والقمامة. السيارات الملاكى والأجرة تمر مسرعة فتلقى علينا بطين الأرض. قعقعة العربات الكارو تبدد سكون الشارع.

حودنا إلى حارة جانبية. مضينا فيها مسافة طويلة فى خط مستقيم، ثم التوينا معها لخطوات طويلة، ثم ما لبثنا حتى دخلنا حارة متفرعة منها، وسط بيوت كالحة مسودة بالغبار والدخان، ما بين أربع وخمس وست طوابق على الأكثر. بعض الشقق فى الأدوار العليا مدهونة حديثاً باللون الأزرق والأخضر والوردى الساذج، كل البلكونات تتدلى منها حبال الغسيل المتخمة بأشباح مصلوبة. بعض البلكونات مقفلة بالأبلكاش والسلك الشيكة كحظائر للدجاج والأرانب. رائحة التقلية والقمامة وصابون الغسيل والرماد تتصاعد متمازجة فى رائحة واحدة نفاذة تبعث الأنس فى الأعطاف.

أخيراً توقفنا عند بيت لا بأس به، من خمس طوابق على الطراز الفرنسى القديم، عمره لا يقل عن نيّف ومائة عام، له

باكيات بارزة وشرفات وشبابيك طويلة القامة متقنة الصنع. باب مفتوح ودرفتاه غائصتان فى الأرض بين البلاط المتآكل المتفزز. بعد العتبة بخطوطين فتحة بالوعة تشير إلى أن البيت كله يصرف فضلاته فى «طرنش» واحد يتم كسحه من هذه الفتحة.

باب الشقة مجاور لباب الشارع تماماً، لها شباك مطل على الشارع لصق فتحة باب الشارع. مدَّ وجيه وهدان يده بالمفتاح، فتح الباب. سرب يده من وراء الدرفة ضاغطا على زر النور، فانبعث الضوء فى مواجهتنا. تقدمنى قائلاً: ادخل. أغلق الباب ورائى بالترباس الداخلى.

كنا فى صالة مربعة تخلو تماماً من أى أثاث، بلاطها لامع ليس فوقه سوى الظلال. الحوائط تستحم فى الرطوبة والملح اللزج يتخثر ويساح فى خطوط عشوائية قبيحة الشكل مفزعة، ثمة خرائط وجبال وأحراش ومستنقعات رسمتها الرطوبة على الحوائط وفى السقف يتساقط الجير عن المحارة.

وقفت مذهولا وقد بدأ الشك يساورنى فى كل شىء أما هو فقد وقف أمامى واضعاً يديه فى خاصرتيه، ناظراً نحوى ونحو الحوائط فى زهو شديد، كأن لسان حاله يقول: أرأيت بشائر صدق قولى؟.. فلما رآنى غير مستوعب للموقف برمته رفع حاجبيه قائلاً: تشرب شاى؟ ثم مضى بالفعل نحو ما توقعت أن

يكون مطبخاً. فمضيت وراءه، فإذا بنا بالفعل في مطبخ، لكنه مجرد حوائط وحوض غسيل ورخامة مستطيلة، وليس ثمة من موقد أو طبق أو حلة أو كوب أو كنكة أو حتى كوز من الصفيح وكانت الحوائط تزدان بنفس الخرائط، فتشككت فى أننى سمعته يقول: تشرب شاى. لم أشأ أن أسأله، استدرت خارجاً من المطبخ، رأيت بحذائه دورة مياه تفح من جوفها ريح كريهة، شددت بابها أغلقته. أمامى الآن حجرتان مفتوحتان، دخلت الأولى فلم أجد بها أى شئ على الإطلاق، اللهم إلا ما رسمته الرطوبة على الحوائط من غابات وخرائب وأدغال. اندهشت كيف ينام فيها؟ وعلى أى شيء ينام؟ دخلت الحجرة الثانية فإذا الفراغ يملأ كل بقعة فيها. رأيت أن من العبث أن أوجه إليه أى استفسار. إلا أنه كرر على مسمعى: تشرب شاى؟! وجدتنى أرد بعصبية شديدة: افرض أننى طلبت فأين هو الشاى؟.. قال: حالاً، ثم تركنى ففتح باب الشقة بسرعة ووقف فى وسط مدخل البيت صائحاً فى اتجاه سلّم سابح في بحر من الظلام كدنيا صوراً أسود: يا مرمر! مرمر!! اعملى لنا كبايتين شاى لو سمحتى!.. فلم أسمع أى رد عليه، إلا أنه عاد فأغلق الباب بالترباس. ثم قال فجأة:

– « على فكره! لك عندى حلقة ممتازة تليق بوجهك وبشعرك الخفيف هذا! ثم إنى اشتريت شفرة جديدة من أعظم الماركات

أظنها ستجعل ذقنك هذه الناشفة أنعم وأطرى من الحرير القز! إجلس أمامى لأريك فن الحلاقة على أصوله!!»..

وضع الحقيبة على حافة الشباك، فتحها بسرعة. صحت فيه بغيظ وضيق:

– «أنت قلت إنك سترينى وثائق ورسائل السماء اليك فأين هى أولاً وقبل كل شىء؟!»

ترك الحقيبة مفتوحة وأشار بابتسامة ضجرة إلى الخرائط المرسومة على الحوائط قائلا:

– «هذه هى!! ألم يكفيك كل هذا؟! سأقرأها لك الآن على قدر ما فهمته منها! ولكنى كنت أحب أن أفعل ذلك وأنا مندمج فى الحلاقة لك! إن الحلاقة تجعلنى أتوهج تستحضر ذهنى ولو كان فى بلاد بعيدة!».

– «دعك من الحلاقة الآن!».

– «ستشكرنى لو حلقت لك!»

صحت بغيظ شديد:

– «يا أخى وكيف تحلق لى بحق الأبلسة؟! هل أتربع على الأرض وتتقرفص أنت أمامى؟!»

– «وما الداعى؟ اجلس على أرضية الشباك وأظل أنا واقفا! سُمك الحائط عريض كما ترى!»

– «اعفنى من الحلاقة أرجوك وإلاّ فدعنى أنصرف!»

– «براحتك! والآن سأقرأ لك بعض سطور هذه الرسائل المقدسة!!»

أشار بقلم من الرصاص نزعه من جيبه قائلاً وهو يضع سن القلم على الحائط:

– « ما هذا الذى تراه؟»

– «جير تساقط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل!»

رمقنى فى استخفاف ثم انفجر ضاحكاً:

– «هذا ما توقعت أن تقوله! ولكن لا! ليس هذا هو الأمر ! إنما الحقيقة هى أن هذه الخطوط التى أمامك لم تحدث هكذا عبثاً ولا صدفة! أقصد أن حركتها هذه ليست عشوائية! فلا شىء يخضع للصدفة والعشوائية أبداً فى هذه الحياة! كل شىء له حكمة، معنى يتجلى فى حركته الذاتية! كل خط مثلاً يرتفع إلى أعلى هكذا متعرجاً متلوياً؟! ،ما الذى يجعله ينحدر إلى أسفل ثانية؟! هذا ليس صدفة! ليس عشوائية! بل تحرك هكذا ليصنع هذه الدائرة! وتصنع الدائرة مع هذا الخط الاخر هذه الربوة! وهذه المناظر المتعددة إنما هى فى حقيقة أمرها كلمات ذات معنى ومنطق!! إن الله سبحانه باختصار– وهو قادر على كل شىء – يرسم لى العبر والمواعظ! يشخص لى أزمنة سوف تجىء وأحداثاً سوف تقع !! يحدد لى رموزاً عميقة!! لم لا تكون هذه آية من الآيات الكونيــة البّـينات نبّـهنى وحى من الله إلى

محاولة قراءتها وأخذ الموعظة منها والدرس والتنبيه!! لا تتصورنى مجنوناً فأنا فى كامل قواى العقلية بل لم أكن فى حياتى أعقل منى الآن!! وأنت بعد قليل سترى تفاصيل الرسوم بدقة! وحينئذ سترى ما وراء هذه الرسوم والأشكال!! على كل حال اقترب منى وركز بصرك على حركة هذا القلم أينما سار أو توقف! وإنى لواثق أنك سوف تقتنع وترى نفس ما أرى!!».

- «أرى ماذا وأقتنع بماذا يا هذا؟! إما أنك مهتز عقلياً أو أنك تستخف بعقلى!».

- «من فضلك! نحن أصدقاء قدامى! من حقك أن تهاجمنى ولكن بلطف! وليس من حقك اتهامى بالجنون فأنت منذ قليل كلت لى المديح بالكيلة! فعلى الأقل أنت واثق من صحة عقلى الذى كتب هذه الأشعار التى أطربتك!!»

- « أستاذ أنت الان تخرف! هذا الجير وقع عن الحائط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل! وكل بيوت الناس القديمة يحدث بها هذا!»

- «ولماذا لم يسقط الجير مرة واحدة؟! ما الحكمة فى أنه يسقط بطريقة ترسم هذه الرسوم وتخط هذه الخطوط كأنما بسن القلم؟!»

- «قياساً على هذا فإن كل البيوت المجاورة لك تجيئها رسائل السماء! فلست أنت وحدك المصطفى!»

- «كل البيوت قد يحدث لها شيء كهذا أى نعم ولكن الله لم يوحِ لأحد من أصحابها بقراءة الخطوط التى تنتج عن التساقط الجيرى!! الله سبحانه لا يوحى للأنبياء فحسب! بل يُوحى للناس كافة! للطير! للحجر! للشجر! للأرض! لكل شيء! الحياة نفسها وحى من الله! الروح التى فيك وحى من الله! الطفل الوليد يرضع ثدى أمه بوحى من الله! يعرف أمه وأباه بوحى من الله! وأنا بوحى من الله رأيت أنه من الممكن قراءة هذه الخطوط على حوائط منزلى! إنها موجهة لى أنا شخصياً!! وعلى فكرة! إنك لو تأملت فى مثل هذه الخطوط فى كل بيت فستجد أنها تختلف من بيت لآخر اختلاف البصمات! لقد تأملت هذا بنفسى فى كل البيوت التى دخلتها فوجدت أن كل حائط عليها بقع عارية أما عندى فخطوط مرسومة لها معنى ومنطق! ألهمنى الله تفسيرها فما الذى يغضبك فى هذا؟ خليك مع الكداب لحدّ باب الدار كما يقول المثل!»

- «قل إذن ما يعن لك!»

أشار بالقلم الرصاص نحو التشكيلات الغريبة قائلا فى جدية شديدة التجهم:

- «ما هذا التشكل كله؟! أليس يأخذ منظر مدينة كبيرة متهدمة يعمها الخراب فى القلب مع أن القباب والمآذن والمداخن وأعمدة النور وأسلاك التليفونات والهوائيات توحى

بأنها عامرة؟»

تأملت الشكل جيداً، فإذا هو بالفعل كما يقول، إن الصورة التى رسمها فى خيالى راحت تتضح شيئا فشيئا وتنطبع على الشكل المرسوم على الحائط بشكل جلىّ، وبدرجة شككتنى فى سلامة عقلى نفسه فخفت أن تكون عداوة قد سرت إلىّ.

قال: «جميل؟»

قلت: «جميل!»

أشار إلى شكل هلامى معلق على أعلى قمة فى ما اعتبرناه حطام مدينة، وكان يميل برأسه نحو منحدر سحيق . قال:

- «بم يذكرك هذا الشكل؟ هذا الرأس المحوط بشال من الشعر! وهذا البدن المرن القوى! وهذه الموخرة العارية مع الذيل والأقدام الأربعة أليس هذا سبعاً؟ أسداً بمعنى أصح؟!»

قلت بكل اقتناع:

- «نعم هو كذلك!سبع ولا كل السباع! هو فعلاً لا يمكن أن يكون إلا سبعاً»

قال كأن هذا شىء مفروغ منه: «جميل!». ثم أشار إلى شكل آخر يطلع من جوف الخراب متطلعاً نحو السماء وأخذاً سمته نحو القمة المرتقبة:

- «وهذا الشكل أليس يوحى لك بأنه كلب؟!»

هززت رأسى فى تأييد قاطع:

- «نعم هو كلب وابن كلب أيضاً بلا جدال!»

رفع ذراعيه فى انتصار وهتف:

- «الحمد لله! هذا إذن: سبع يسقط وكلب يصعد!!» ولمع فى عينيه بريق مخيف، فيما أخذت أردد لنفسى في اندهاش وانجذاب: سبُع يسقط وكلب يصعد، قول يدعو للتأمل حقا. فإذا هو يضيف:

- «لقد كان السبع حارسا للخراب وحاميا لهذه البقية الباقية من العمار! ولسوف يصعد الكلب ليعيش فوق قمة الخراب! ولسوف يأكل الجيف التي خلفها السبع فيسمن وينظف المكان فيها ويبقى فى انتظار سيد يلقى إليه بالفتات ويتملك المدينة يحولها إلى مشروع خاص لسوف يكثر عدد الأسياد الغرباء وتكثر فضلاتهم بعد التخمة!! سيكثر أيضاً عدد الكلاب بكثرة الجيف والفضلات المتبقية من الأسياد!»..

ثم تراجع عن الحائط فى رشاقة ومرونة فصار بحذاء الحائط المقابل. جذبنى من كتفى بقبضته ليجىء بى إلى جواره ضغط بإصبعه على كتفى صائحا:

- «والآن انظر إلى الصورة من بعيد! ألست ترى أن تحت أقدام السبع ما يشبه الرقم الحسابى الطويل؟!»

بالفعل كان منظر ما اعتبرناه قباباً ومآذن ومداخن وأعمدة وأبراج قد صار من بعيد على هيئة أرقام. قال:

– « هذه الدائرة السوداء هى فى حقيقة أمرها صفر!! وبجوار رقم سبعة! بجوار رقم تسعة وهو نفسه عامود فوقه فانوس! وهذا رقم واحد وهو نفسه عمود أيضاً ولكن بلا فانوس فلو أننا قرأنا الرقم من اليسار إلى اليمين فيكون نطقه ألف وتسعمائه وسبعون!! أى أن لعبة الزمن قد دخلت فى الموضوع كما ترى! فلابد أن هذه الألف وتسعمائة هى عدد السنين كما ندونها فى التقويم الميلادى الذى نعتمده فى بلادنا قبل وبعد التقويم الهجرى! وما بعد الألف وتسعمائة يعنى استمرار الأعوام! والسبعون هى وعاء زمنى يحدث فيه حدث جلل ربما كان بداية الخراب التام! ربما يكون عاماً فاصلاً بين زمن وزمن ربما تقوم القيامة!!»...

صمت برهة قصيرة ليرى وقع كلماته علىّ، ثم استطرد كأنه يشد خيط الأمل فيما هو يقترب بى من الحائط ثانية:

– «ولكن! فلنكن أبعد نظراً! هذا المنحدر الذى سيسقط فيه السبع! انظر تحته! تجد ما يشبه الحديقة القفراء الجافة الموحشة! تلك هى الحفرة الأسطورية التى سيغيب السبع فى جوفها إلى الأبد! والآن انظر إلى خلف الحطام من الناحية الأخرى تجد ما يشبه الحيرة الضيقة ذلك هو مستنقع العدم الذى يلقى فيه بكل من لا ينفع كلب حراسة! غالباً سيتسع لكل أبناء هذه المدينة المؤمنين بواجب الدفاع عنها!! سيُسلّط عليهم

السادة الغرباء كلاب حراستهم تنهشهم فيتراجعون إلى الخلف حيث تجذبهم الهاوية!!»..

واستدار كالجندى المدرب علىَّ خلفاً در. أدارنى معه موجهاً بصرى بإشارة من قلمه إلى الحائط المقابل:

- «انظر الآن فى هذه الصورة جيدا لا يفوتك شيء فيها!»..

كانت صورة كرنفالية كأنها مرسومة بريشة فنان سوريالى كبير ذات حركة مدروسة جيدا: عشرات الأشكال المتناقضة المتآلفة معا: سوق ريفى، مولد السيد البدوى، طراطير، زعابيط، طرابيش، قبعات، طواق، عمائم، قلنسوات، أجساد منبعجة، أخرى كالزعازيع، كائنات لا يعرف فيها الذكر من الأنثى..

رفع كفيه صائحاً:

- « أظنها واضحة وغير محتاجة لشرح! ذلك هو عالم المهرجين والمحتالين والأتباع وأرباب المتع والفنون العسلية والقوادين!! هاأنت ذا تراهم يوجهون الحُطام ولا يحفلون بشئ ذلك أن البقاء لهم فى النهاية!! إن أى شريف حقيقى لن يكون له أى مكان فى مدينة الكلاب والأسياد أصحاب المشاريع المدرارة! إذ لا بضاعة لهم فى هذه السوق الصاخبة سوق المهرجين الهازليين مصاصى الدماء فهم أنفسهم بضاعة للمهرجين!!»..

أشعل سيجارة قدمها لى بود عميق دافىء وأشعل لنفسه أخرى، جذب منها الأنفاس بعمق:

- «ألست ترى إذن - تبعا لهذه الرؤية الواضحة - أن الجادين والشرفاء والوطنين مقضى عليهم بالفشل الذريع لا محالة وأن شاعرَ الأغنية الشعبية الشهيرة لم يكن يمزح فحسب حينما طالب بالتقفيل على كل المواضيع إذ أن الجو بديع والدنيا ربيع؟! أشعر أنى قد دوشت رأسك! اقعد إذن لأحلق لك! حقق لنفسك أمنية كان يجب أن تتمناها منذ سنوات طويلة: أن أحلق لك مثل النجوم الذين أحلق لهم! أريد أن أرفعك لمرتبة النجوم وهذا فأل طيب! يمكنك أن تجلس على حافة الشباك ! هيا:.»..

تركته ومضيت نحو إحدى الحجرتين المواجهتين:

- «دع الحلاقة الآن! أريد أن تقرأ لى بقية ما فى هاتين الحجرتين من رسائل موجهة إليك من السماء!!»

مشى خلفى:

- - «إنها فى مسائل أخرى كثيرة وعميقة! سوف لن تصدقها بالطبع! ستوجع لى دماغى على الفاضى لكن لا بأس من أن أطلعك على شىء منها!!»

تقدم فى حماسة شديدة نحو الحجرة القريبة، دخلها مضيت وراءه، لكنى توقفت على بابها، فلاحظت أن فى الباب مفتاحاً، فانبثقت فى رأسى فكرة شيطانية أنجو بها من هذه الورطة السخيفة التى ليس من ورائها طائل. أعطانى ظهره وشرع يتأمل الحائط المواجهة تمهيداً للشرح. فبكل بساطة وهدوء جذبت باب

الحجرة بسرعة خاطفة، أغلقته، أدرت المفتاح: تك.. تك.

هرولت فى الردهة كطفل عابث، فتحت باب الشقة وخرجت لاهثاً فانغلق الباب خلفى من تلقائه. تلقفتنى الحارة، لفظتنى إلى الشارع الفرعى، تتسارع دقات قلبى تسبق خطواتى..

فى الشارع العمومي الذى يشق المدينة لفحنى الهواء فشعرت كأن دماغى قد رُدَّ إلىَّ بغتة. انسحب الطنين فانبعث الصفير فى أذنى. عاد صوت وجيه ابو وهدان يهدر فى رأسى صافياً ناعماً ناضحاً بالمرارة، بلهجة حكماء العصور الغابرة. تمثلت لى صورة العرَّاف تيريزياس فى المآسى الإغريقية القديمة يلقى النبوءة حاسمة قاطعة جليلة النبرات موجزة العبارة. دهمني تساؤل مفاجىء: من أين يستمد مثل هذا العراف نبوءته؟ من ذا الذى يُطلعه على الغيب؟ أهى قدرة فذة على استقراء ما وراء الأفق؟ ما تبطنه النفوس والمشاعر والأحداث؟!.. لكننى شعرت أن ما قاله وجيه ابو وهدان- وان اصطبغ برؤية هزلية قائمة على الوهم والتخليط - يحمل قدرا كبيرا من النفاذ والاستشراف..

كانت أضواء الشارع شاحبة مختنقة، ميته فى بقاع كثيرة لاضوء فيها. يضمحل الضوء كلما اقترب الشارع من الخلاء العريض المتصل بأرض زراعية شاسعة، حيث تتباعد المسافات بين المبانى فتبدو نهاية الشارع كذيل الفأر. قمر ضئيل جداً يكابد ويناضل جحافل سحب تنطرح فوقه بغزارة فثقبها ثقباً

صغيرا كعدسة صغيرة مدورة. تذكرت أن ما فعلته منذ لحظات قليلة بوجيه ابو وهدان شيء في غاية الجبن والخسة.. تذكرت أشعاره البديعة التي أمتعتني بحق، وطريقة إلقائه لها موسقة مشحونة بالانفعال والصدق والمعاناة. شعرت - لأمر ما - أنني قد صرت الآن مقتنعاً تمام الاقتناع برؤيته هذه الهزلية المجنونة. رأيتني أستدير عائدا إلى بيته لأفتح الباب بأي شكل وأفرج عنه..

قطعت الشارع والحواري في دقائق معدودة. أشعلت القداحة داريت لهبها الواهن براحة يدي اليسرى حتي تبينت في ظلام العتبة موضع شراعة الباب. دفعتها فانفتحت، فشعرت بفرحة طاغية، سربت أصابعي من خلال الشبكة الحديدية، أزحت لسان الكالون عن مخبئه، انفتح باب الشقة، الردهة كما هي، غارقة في الصمت والرطوبة كالمقبرة، حقيبة عدة الحلاقة موضوعة على أرضية الشباك، المفتاح في باب الحجرة كما تركته، مددت يداً مرتعشة، أدرته: تك.. تك.. تك. دخلت مفتعلاً ضحكات حاولت جهدي أن تكون مرحة تشي بالمزاح والشقاوة. كانت الحجرة خالية تماما اقشعر بدني، صرت أنتفض مقلباً البصر في كل ركن متوقعاً أن تنشقّ الأرض عن عفريت يلتهمني أو يطبق على قفاي. بصوت راجف مضطرب رُحت أنادي: وجيه! وجيه. اقتحمت الحجرة الثانية، فالمطبخ، فدورة المياه، ثم أعدت الكرة ثانية فثالثة فرابعة وصوت ندائي يعلو يرتعش يقترب من الصراخ الفاجع، ولكن ليس ثمة من أحد على الإطلاق.

الدسّاس

جدتى معزوزة لم تكن أم أبى، بل كانت- وياللعجب- أم جدى نفسه، إنها جدة أبى أيضاً. أما جدتى المباشرة - أم أبى- فإنها ماتت منذ وقت مبكر، قيل لأنها يئست من أن تكون كبيرة الدار ذات يوم لها طالما بقيت سطوة جدة أبى على قيد الحياة، وبما أنها -جدة أبى- قد جاوزت المائة عام من عمرها بصحة جيدة فإن الأمل فى رحيلها خفتت ذبالته فى عينى جدتى «ستّ»، تلك المسكينة التى لم تهنأ بمركزها يوماً واحداً فقبعت فى الظل سنوات شيخوختها تتطلع فى حسرة إلى الأضواء المنصبة كلها على جدتى الكبرى معزوزة.. حتى زارها مغص حاد ذات ليلة وفى الصباح أخذها معه إلى القبر. وقيل إن أحداً لم يشعر برحيلها سوى أبى، الذى انتابته حالات من الشعور بالذنب، فأدمن إقامة الختمات وزيارة المقابر والتصدق رحمة ونوراً على روح المرحومة والدته التى لم أحظ بشرف رؤيتها.

كانت تقضى النهار وشطراً من الليل فى صلاة وتسبيح. وذات يوم صعدت إليها على وجل فى غرفتها العلوية المنعزلة، لأحكى لها مناماً رأيته، لكى تفسره لى، مثلما يفعل كل من يرى مناماً غامضاً، ذلك لأنها كانت بارعة فى تفسير الأحلام براعتها فى اكتشاف الأنساب والقرابات من وجوه الناس، فى تلك الأثناء كنت أرتعد من رؤية ملامح وجهها الدائرى العريض كرغيف المطرحة، الشديد البياض والهيبة وقد امتلأ بالتجاعيد الغائرة

كأنها سكك ودروب فى أرض رملية، بجبهة عريضة بارزة كدرج البورية ذى الشكل المقوّس، الذى قيل إنه من شوارها الملوكى. تحت الجبهة عينان كفتقين واسعين بين كتل من السحاب يظهر منها لون السماء الصافية، إذا نظرت فيها برهة تملكتنى القشعريرة، فحينما يهبط الجفنان على الجفنين أشعر كأن لحافاً ناعما قد غطانى ولفّ جسدى كله، سيما وأننى كنت مغرماً بالنوم على ركبتها، فكانت الصلة بين عيني وعينيها عمودية قصيرة مركّزة. وبمجرد وضع رأسى على ركبتها تمتد يدها الكبيرة بأصابع كأصابع الموز، فتمر على جسدى كله متمتمة بالرقيا تمتمه تتخيلها تثاؤب لاينى يتصاعد مما يشى بأ عين الحسود لابدة كامنة فى أضلاعى، لكنها لن تتركها حتى تجتثها من جذورها فتشعر أنها قد لفظت التثاؤبة الأخيرة فى صدرها.

بابتسامة عريضة جداً أضفت على وجهها مريداً من الضوء والإشراق لكزتنى بيدها الممسكة بالمسبحة:

- «إنت كمان بتعرف تحلم؟ دهده دهده!». غاظنى استنكارها لقدرتى على الحلم، نوى أن أمسك عن ذكره. لكنها جعلت تستدرجنى بالتشجيع حتى حكيته:

رأيت فيما يرى النائم أننى كنت مرتدياً ملابس إفرنجية، قميصاً بياقة، على سروال قصير من الصوف الثمين، فوق رأسى طربوش وفى قدمى حذاء، مع أننى فى الواقع لا أرتدى

سوى الجلباب وقدمى لم تعرف الحذاء بعد. وكنت فرحاً لأنى ذاهب لزيارة أمى التى خيل لى لحظتها أننى لم أرها منذ مدة طويلة جداً. وكان يخيل لى كأننى أعرف أنها غاضبة من أبى ومقيمة فى دار أبيها، وأن دار أبيها هذه فى بلدة بعيدة، وأن ثمة من سيجىء حالاً ليأخذنى لها، فهناك فرسان مربوطان فى حديد شباك مندرتها، منظرها بديع رهيب، عليهما سرجان من القطيفة الحمراء، يقف بجوارهما عبد أسود يرتدى ثياباً شديدة البياض وتعمم بشال كبير أبيض. وكان يبدو كأن ما يشبه العراك يدور فى المندرة بين أبى وبين من سيأخذنى، فتصل إلى أذنى بعض عبارات كأنها التهديد الخشن يبين فيها صوت كصوت أبى، ترد عليها عبارات مماثلة بل أشد منها، فيها صوت كصوت شكرى أفندى التركى ناظر زراعة الوسية.

عند هذه النقطة صارت جدتى تنتفض شيئاً فشيئاً. بيدها الكبيرة أطبقت على كتفى، عدلتنى جالساً، فإذا بعينيها كشاروقة الفرن تفح باللهب. صارت تنظر فى عينى نظرات غامضة لكنها مخيفة تحمل الكثير من الاسترابة والتشكك والحيرة. خطت على صدرها فزعة:

– «بسم الله الرحمن الرحيم! ما هذا الذى قلته

يا ولد؟! قلة ثانية! واحدة! واحدة! هه!

صف لى كل شىء رأيته! ماذا رأيت؟!»

شعرت كأننى ارتكبت جريمة. كدت أقف عند هذا الحد زاعماً أن المنام قد انتهى. لكنها أخذتنى فى حضنها، هدأتنى بتقبيل شعر رأسى، شجعتنى. صرت أحكى لها من الأول، وهى تتابعنى متسعة العينين ودهشتها تتعاظم لدى كل كلمة أفوه بها، فإذا هى تعيد ترديد كلامى كأنها تريد حفظه، أو لعلها تقارنه بشىء ما قد حدث من قبل:

– «العبد الأسود ممسك بالخيل؟! التركى يتعارك
فى المندرة؟! تلبس البذلة والحذاء والطربوش؟!
تذهب لزيارة أمك فى بلدة بعيدة؟! أمك كانت
غاضبة من أبيك؟! رباه! ما الذى يقوله هذا
الولد؟ هل يُعْقل هذا يا ربى؟! من يكون أنبأه؟!
إن أحداً على ظهر الأرض لا يعرف هذا الذى حدث
ولم يحكه أحدٌ لأحد! حتى أبوه نفسه لا يعرفه!!
أكمل يا عكروت يا مقصوف الرقبة! ماذا رأيت أيضا
بعد ذلك؟!»

قلت إن الأفندى التركى خرج من المندرة طويلاً كالنخلة متيناً كالحائط بشوارب واقفة منتصبة، يتقمط ببذلة عسكرية، وفى جنبيه سيف وغدارة فى جرابين من الجلد الأحمر الغامق. مشى خلفه ناس كثار يطيبون خاطره. ومن خلفهم أبى يرتدى ملابس غريبة لم أرها عليه من قبل، لا يكف عن الزعيق والتهديد

بالانتقام إذا تراخى هذا الرجل فى إعادتى إليه بعد بضعة أيام كما اتفقوا بشهادة القوم. ثم رأيتنى أركب الحصان أمام العبد الأسود الذى ربط قدمى فى الركاب وأحاطنى بذراعه فى حرص شديد. ومن خلفنا الأفندى التركى يتبختر فوق حصانه فى ظلهما الممتد أمام حصاننا. ولا أتذكر الطريق الذى قطعناه لأنه كان طويلا جداً، ثم إن الجو كان شديد الحرارة والعبد الأسود يطرح فوق رأسى شمسية، ويظهر أننى نمت على صدر العبد الأسود، لكننى حينما فتحت عيني رأيت أمامى بحيرة تنبعث من أرضها الأوان الزاهية وتحوطها الأشجار والورود.

جدتى فى فزع حقيقى:

– «رباه هذا غير معقول أبداً! أبداً!

أبداً!! أكمل يا مقصوف الرقبة! صحوت

على البحيرة؟ هه! هه! البحيرة!! يارب!

لقد قال البحيرة! أكيد يقصد حمام السباحة

فى الجنينة! أخشى أن يقول إن العبد

الأسود أنزله وغسل له وجهه ونفض

التراب عن ثيابه فيما أنظر أنا من الشباك

البعيد فرحة!!»

انتفضت واقفاً من الخوف وقد شعرت أن شعر رأسى يقف كالأسلاك، إذ خيل لى أنها شيطانة تعرف كل شىء، كأنها كانت

معى فى الحلم. قلت وفرائصى ترتعد: نعم! نعم! هذا حدث فعلاً يا جدة عند هذه البحيرة نزل الأفندى التركى هو الآخر، فجاء من أمسك بالفرسين فمضى بهما إلى بعيد. ثم حملنى العبد الأسود على صدره، ومضى بى خلف الأفندى التركى. مررنا فى طريق تحفّ به الأشجار، فى نهايته البعيدة كانت بوابة الدار تقترب.

صرخت جدتى ضاربة فخذها بكفها:

- «سيصيبنى الولد بالجنون! هل تتذكر شكل هذه البوابة؟!»

« كانت بوابة كبيرة بنية اللون! عليها كتابة ونقوش وزخرفة!»

- «يقف على بابها أحد؟!»

- «رجلان أسودان شكلهما مخيف! ظهر كأننى معروف لهما! داعبنى واحد منهم! والآخر فتح الباب! فحملنى الأفندى التركى ودخل بى!»

- «هل مشيتما طويلاً بعد دخولكما البوابة؟!»

- «نعم! ومررنا بغرف كثيرة على الجانبين مليئة بالحريم! ولا يوجد إلا قليل من الرجال السود!»

- «الخصيان! كانوا أربعاً!»

- «حودنا على اليمين فمشينا فى ممر ثان!»

- «بالضبط! حتى وصلتما إلى آخر باب على اليمين!»

- «وفيه سلم متلولب...»

– «شيطان! أقسم أنك شيطان! هيه! هيه!

صعد بك السلم حتى وصلتما إلى حجرتى!!»

– «حجرتك؟!»

– «تتذكر شكل الحجرة؟!»

– «فيها سرير نحاسي! ومقاعد تشبه الكنب الأفرنجي! وكنت أعرف أن أمي تنام في هذا السرير تنتظرني! فلما سمعت خطواتنا على السلم الخشبي نزلت وفتحت الباب بسرعة وهي تصيح: حبيبي وصل؟ حبة عيني وصل؟ ثم نزعتني بسرعة من ذراعي الأفندي التركي! فغبت في حضنها بعض الوقت! ولما فتحت عيني!.. يا ربي.. ل... إنني خائف يا جدة!..ل...ل.. لقيت أن أمي هذه في المنام تشبهك الخالق الناطق! وكان يخيل لي أنني أعرف أنها أنت! لكنني خفت لا أعرف لماذا؟!وصرخت فصحوت من النوم!!»

ياله من منظر. لقد انهارت جدتي معزوزة. كل عين من عينيها برتقالة تحت المعصرة تسرسب الدموع الحمراء وهي ترتجف، تنظر لي في خوف ممزوج بالتشكك كأنني عفريت من الجن. تأخذني في حضنها تارة ثم تعود فتدفعني إلى بعيد قائلة: بسم الله الرحمن الرحيم! دستور! دستور!.. ثم وقعت مغشياً عليها. فانطلقت أصيح مرتعباً من فرط الشعور بالذنب. جاءت الدار كلها، وأولاد عمي، والحاجة نوحاية زوجة عم أبي وهي تقاربها

فى السن والصحة وقوة الذاكرة. صاروا يجرون لها بعض الإسعافات وهم ينظرون لى فى غضب يخفى اتهاماً غامضاً، وأنا لا أنى أردد أننى لم أفعل شيئا أكثر من أننى حكيت لها مناماً كى تفسره لى. فتنهال علىَّ الاسئلة جاهزة مليئة بالشك والاستراباة:

- «ماذا قلت فى منامك المشئوم هذا؟!»
- «المصيبة أن تكون بشرتّها بالموت!»
- «ماذا اخترعت لها من فأل سيء يا وجه المصائب؟!»
- «والله لا يرد عَنَّك إلا علقة ساخنة!»
- «الكى بالنار على مؤخرتك هو الحل!»
- «انطق! ماذا قلت لها بالضبط؟!»

حكيت لهم المنام من جديد، وبتفصيلات إضافية كنت قد نسيتها فى الحكى الأول. منها أن أمى التى فى المنام، والتى كانت صورة طبق الأصل من جدتى معزوزة، كانت تربط ساقها بشاش، ،كانت تعرج وهى تمشى إلى كنبة بجوار الشباك، وبالأمارة كانت هناك إلى جانب الكنبة ماكينة خياطة مما يدار باليد.

عندئذ دبت الحياة فى جدتى الكبيرة معزوزة فانتفضت قاعدة تهذى وقد برقت عيناها بريقاً جهنمياً:

- «شيطان تلبس الولد! كل ما حكاه صحيح! نعم! يومها

كانت قدمى ملووحة! ولوحتها هى سبب الغضبة التى استمرت أكثر من ثلاثة أعوام! رباه! ولكن كيف عرف هذا؟! هذا الولد لا يمكن أن يكون قد سمع إلا! لقد شاف بعينيه!!»

. وحتى تلك اللحظة لم يكن أحد من أهل الدار يعرف أى شىء عن تاريخ جدتى الكبرى معزوزة؟ أم جدى الكبير «على سعد الجلبى»، المعلقة صورته فى مندرتنا بطربوشه القصير ولحيته البيضاء المدببة وعينيه الضيقتين المنتشرتين فى عيوننا جميعاً ولكن، من خلال هذيان جدتى الكبرى، وثرثرة المتحلقين، عرفت شطراً غريباً من تاريخها كان مفاجأة لنا جميعا..

فجدتى الكبرى معزوزة، هذه، هى فى الأصل ابنة جارية من جوارى أفندينا شقيق الخديوى لا أدرى من هو بالضبط. أهديت إليه تلك الجارية بطفلتها من أحد كبار التجار الشراكسة، فأحبها أفندينا لتنوع مواهبها الكثيرة المتفردة، فقربها إليه واستنام لها، وتبنّى طفلتها فتكفل بتربيتها. وكان والد جدى «سعد الجلبى»، الذى يبدو أنه فى أصله البعيد من المماليك الجلبان، يعمل فى معية افندينا كمسئول عن الخيل والدواب الخاصة بوسية أفندينا المتاخمة لبلدتنا وهى إحدى وساياه المتعددة فى البر المصرى من الجنوب إلى الشمال. وكان جدى سعد مجًدا مخلصاً فى عمله، فزوّجه أفندينا من ابنة جاريته- جدتى الكبرى معزوزة - فانتقلت العروس لتعيش مع زوجها- جدى الأكبر سعد- فى سرايته فى بلدتنا، تلك السراية التى

أخني عليها الدهر فتحولت إلى دار عتيقة هرمة تأوى عنقوداً كبيراً من الأسر من بينهم أسرتنا وكلها من سلالة جدى «على» ابنها. وحدث- شأن كل حواديت بلدتنا- أن أولاد السوء وشوا بين أفندينا وجدى الأكبر «سعد» فعزله، فأصبح يعيش في بلدتنا من ريع قطعة أرض زراعية استصلحها وتملكها. لكن الخلافات راحت تدب بين جدى الأكبر «سعد» وجدتي الكبرى «معزوزة»، تتصاعد إلى حد الاعتداء عليها بالضرب المبرح لكنها قد انجبت له جدى «على»، فلما صار طفلاً في نحو السادسة من عمره نشبت معركة بين جدى الأكبر وجدتي الكبرى، فضربها بقسوة حتى جرت من أمامه فتعثرت فوقعت فوق ساقها فالتوت، فركبت في الحال إلى أهلها في قصر الحرملك بقصر أفندينا الذي يقضي فيه معظم أيامه في تفتيش وساياه قرب القاهرة، وكانت هي تظن أن جدى الأكبر «سعد» سيذهب إليها بعد حين ليصلحها، لكنه خشي من مواجهة أفندينا فاكتفى ببعث المراسيل، وتشبث أفندينا برأية في أن يجيء هو بنفسه لكي يستفه ويعطيه الدرس الواجب، فتزايد خوف جدى الأكبر، فتركها مدة تقترب من ثلاث سنوات مليئة بالعند ونشفان الدماغ، شعرت هي أثناءها بالشوق الشديد لرؤية ولدها المعذب بدونها. أرسلت تطلبه بالذوق، فتمسك جدى الأكبر بمجيئها بنفسها لكي تراه، وعشمه أن يكون مجيئها نهائياً وينتهي الخصام، فما كان من أفندينا إلا أن بعث قائد حرسه الخاص

يطلب الولد بالقوة، فاصطحب معه أحد العبيد، وفعلاً جيء بالولد. وبنفس التفاصيل التي رأيتها أنا في هذا المنام العجيب!..

منذ ذلك التاريخ قامت بيني وبين جدتي الكبرى علاقة شديدة الخصوصية. أصبحت لصيق حضنها العريض الدافيء، يحلو لها البحلقة في عيني وفي تقاطيع وجهي بنظرات شبه جنونية، ثم تبتسم قائلة: كيف لم أكن أنتبه إلى أنك صورة طبق الأصل من جدك «علي» وهو في مثل سنك؟! وكان يعتريها فرح عظيم لا أقدر على وصفه، فيبدو وكأنني بالفعل ابنها الذي عاد إليها أخيراً بعد طول غيبة واشتياق، فإذا هي تضمني إلى صدرها بقوة، فأشعر بحلمة ثديها تتمدد تنتصب تكاد تخرق الثوب لتدخل في فمي، وتروح هي تطلق أصواتاً كمواء القطط فيما تنيم خدها فوق خدي مهتزة بي ذات اليمين وذات اليسار في نشوة بالغة. لكن نظرة الشك الحائر ظلت تطالعني كلما نظرت في عينيها.

ضرب الودع

رغم صغر حجم بلدتنا، ووقوعها في منطقة نائية قريبة من البراري إلا أنها محصورة بين بحر نشرت ومصرف نمرة تسعة، فإنها كانت مشهورة في الحب باثنين لا ثالث لهما: اسمها بغرابته، وعبد المحسن جاد الله بطقطان مخه الأقطش.

كانت مجرد عزبة يمتلكها اقطاعي كبير جداً اسمه حافظ باشا حسن، تعرف باسم: ضهر الجمل. لا أحد يعرف سر هذا الاسم أو معناه من الأجيال الراهنة، لكن العجائز المخضرمين يقولون إن العزبة مقامة بين مرتفعين من الأرض أشبه بسنامى الجمل، فتبدو من بعيد ببيوتها القزمية الطينية وما فوق أسطحها من أحمال القش والحطب كظهر جمل بارك. ولربما كان لطرفة اسمها دخلاً في شهرتها إذ يحب الناس نطقه، لكن العجائز المخضرمين- أيضاً- يقولون إن شهرتها جاءتها من الزمن الماضي قبل أن يفتتها حافظ باشا حسن ويبيعها لأولاده بعقود صورية، تحايلاً على قانون الإصلاح الزراعي الذى عرف أن ثورة يوليو بسببها لإصداره، حيث كانت هذه العزبة أشبه بوسية كبيرة شاسعة الأرض تحتاج لأنفار شغيلة، فكانت أهالى البلدان المتاخمة لها تجد فيها دائما أبداً عمالاً باليومية، ورغم أنها قيدت في الأوراق الرسمية باسم أولاد الباشا فإنها ظلت تحت إشرافه المباشر لأن أولاده غير مقيمين في مصر

أصلاً منذ أن ذهبوا للتعليم فى لندن وباريس ونيويورك وفَضّلوا البقاء هناك بعد قيام الثورة. بقى العمل فى الأرض منتظماً ومنضبطا بفضل ناظر زراعة وفىّ لسيده أمين مخلص فى عمله يُدعى سعد افندى النبروهى عرف كيف يحول معظمها إلى حدائق وكيف يدير بقيتها بأقل عدد ممكن من الأنفار الموسميين، إضافة إلى مجموعة ثابتة من الفلاحين أشركهم فى المحاصيل مقابل قيامهم بإفلاح الأرض. كان طيب القلب يحب كل الناس ويحبه كل الناس فبات وجها بارزا فى كل مجالس البلدة.

أما عبد المحسن جاد الله فإنه الحارس الخصوصى للباشا وسائقه الخاص أيضا. كان فى الأصل قاطع طريق وهو فى شرخ الصبا الباكر، ابن ليل يقلق منام أتخن تخين فى العب كله بجميع بلدانه وعزبه، جَسور بارد الأعصاب ميت القلب من يومه، حاصل على لقب ذى اليد الطرشاء منذ الطفولة، يكفى أن تسقط يده على خد إنسان لتعوج له فماً أو تهشم له أسناناً أو ربما تفقده الحياة فى الحال.

وبناء على هذه السمعة الطيبة لم يكن محتاجاً لاستخدام يده كثيراً، لا بالضرب ولا بطخ النار مع أنه مشهور بالقدرة الفائقة على التنشين فى عز العتمة فلا يخطىء هدفه ولا تطيش له رصاصة. بمجرد ظهوره فى الطريق ليلاً فإن من يلتقيه تسيب

ركبه فى الحال وينفض أمامه كل ما معه من مال وأبضاع يتركه له عن طيب خاطر مع الوعد بأنه لن يفتح فمه مطلقاً، ولسوف يفعل، سيّما وأنه واثق أن شكواه ستذروها الرياح لأن أحدا لن يستطيع القبض على عبد المحسن جاد الله بأى حال من الأحوال. كان أمراً واقعاً يتقبله الناس باستسلام عجيب كما يتقبلون أقدارهم التى يعرفون أنها رُسمت لهم سلفا، شأنهم دائما مع جميع الطغاة البغاة على طول التاريخ المصرى. إلا الباشا، شغله أمره فلم يقبل بوجود رأس أشد هيبة من رأسه فى معيته. لهذا نجح فى تدبير الأمر جيداً، فنجطة محكمة شارك فيها كل رجاله مع رجال المباحث تم القبض عليه، فلما لم يتقدم أحد لاتهامه بشىء محدد اكتشف رجال الشرطة أنه هارب من الجندية فتم تجنيده فى الحال. هنا ظهرت شخصية الباشا، الذى ذهب بنفسه إلى إدارة التجنيد فجىء له «بالولد» ليرى شكل هذا الجبار المرعب، فإذا هو يفاجأ بأنه أمام صبى متين البنيان بارز الجبهة فى كبرياء، طويل القامة فى مهابة، بارز العينين تشع نظراتهما بالجسارة وقوة الشخصية كما تنطق ملامحه بفرط الذكاء، فقرر الباشا أن يضمه إلى حاشيته، فأوصى إدارة التجنيد بأن تدرب «الولد» على قيادة السيارات بجميع أنواعها. وبالفعل ما أن أنهى عبد المحسن فترة الجندية حتى كان سائقاً ماهراً يقود جميع المركبات من الدبابة إلى

السيارة الملاكى بكفاءة عالية.

في اليوم التالي لخروجه استدعاه الباشا وعينه سائقاً لسيارته الخاصة، فأصبح بمثابة حارس قوى، يرافقه في جميع المشاوير، يمشي في إثره كجدار يحجب عودا من السنط الجاف وقد وثق فيه الباشا إلى أقصى حد، ثقة هو جدير بها حقاً، إذ هو لم يكذب على الباشا في شيء قط، لم يظهر منه سوى الولاء الشديد والمحبة العميقة لسيده وولىّ نعمته. كلمته عند الباشا هي الكلمة الوحيدة التي لا يراجعها الباشا. فإذا أخبره عبد المحسن أن الشمس طالعة في منتصف الليل صدقه بدون أدنى تردد. أطلق عليه الباشا لقب رجل الرجال، يكلفه بالمهمات الصعبة فإذا هي مقضية. صار أهم شخص في حياة الباشا. لا يتصور الباشا أن يصحو من النوم فلايجد عبد المحسن يقدم له الافطار، أو يسمع دبيب خطواته في الردهة استعداداً لتلبية أى نداء، أو يقود به السيارة، أو يرافقه إلى أى مكان. لم يعد للأمان اسم آخر في عينيه وأذنيه سوى عبد المحسن.

للباشا قصر في حي مصر الجديدة بالقاهرة، وآخر في العجمي بالأسكندرية، وفي كل من القصرين حجرة مستقلة لعبد المحسن مفروشة بالفخامة ينام فيها. كان حلقة وصل بين الباشا وبقية الخدم، لكنه في نظر الخدم والسفرجية والجنانية

أصبح الممثل الشخصي للباشا إلا أن عبد المحسن مع ذلك لم ينس طبيعته البراوية طبيعة قاطع الطرق الذي يسوح في الحقول البعيدة يصادق الليل البهيم. كان يحب الليل حباً عظيماً، ولما لم يكن في المدينة ليل فإنه دائم الرغبة في السفر إلى البلد لرؤية والدته وأخيه. متعته الحقيقية يجدها في ليل البلدة ومشاغبة نسائها. يموت في حب النساء نساء البلد، فرغم أنه جرب نساء المدينة كثيراً فإنه يشعر أنه يفعل ذلك من وراء قلبه إنه يتعامل مع عرائس من الحلوى كعرائس المولد، حلاوة لا يستطعمها ولا تحرك مشاعره. نظرة واحدة من بنت من بنات البلد من تحت عقصة المنديل أبو أويه تزلزل قلبه. جرعة ماء من القلة القناوي أو حتى من الزير تروي أكثر من زجاجة خارجة من الثلاجة. طبق واحد من طبيخ أمه القرديحي يشبعه أكثر من سفرة كاملة بأطعمة غريبة غامضة مموهة يتفنن فيها طباخو الباشا. من أقواله المأثورة إن أطعمة المدن مثل حياتهم ملونة مزوقة ملفوفة في أسماء براقة أجنبية، ومنصهرة بطريق تُخفي أصول الأشياء تلغي مذاقها إذ اللحم ليس هو اللحم وكذلك البط والفراخ والخضراوات. ويقول الذين يستلطفونه انه لا يمكن أن يصبح ابن مدينة على الإطلاق وإن اتسق على جسده القميص الأفرنجي والسروال والبذلات الكاملة من مخلفات الباشا. حتى وإن بدا أحياناً في مخلفات الباشا أكثر أناقة من الباشا. حتى

وإن عوج لسانه ليتقن «اللغوة» البندرية وبعض المفردات الأجنبية مثل «مرسيه» و«وبليز» و «هاللو» بالنسبة للقاهرة، و «ياسّو» و«كلاميرا»، و«كالسبيرا» بالنسبة للإسكندرية المليئة بالجريج.

الباشا كان يدرك أن كلبه الوفى يمضّه الحنين دائما إلى رائحة الجيف مهما ترقّى. عن طيب خاطر صرح له بإجازة أسبوعية ثابتة مدتها أربع وعشرون ساعة. صباح الخميس من كل أسبوع يركب إحدى سيارات الباشا المخصصة لتسويق الطلبات، فيذهب إلى البلدة يبيت مع أمه وأخيه ليلة ثم يعود مساء الجمعة على وجه السرعة ليكون فى خدمة الباشا صباح السبت. نظام متبع كانضباط الساعة على مدى أعوام طويلة، لم يحدث خلالها أن تأخر عبد المحسن عن عمل أو موعد مهما اعترضته العقبات.

عمره ما كذب على الباشا، لكنه اضطر أخيرا لارتكاب كذبة حمقاء. السبب فى ذلك «سنيه» زوجة الناظر الجديدة، سلبت عقل عبد المحسن أفقدته رشده فأصبح يخترع للباشا حيلاً مقنعة تتيح له فرصة السفر إلى البلد مرتين فى الأسبوع.

كانت أجمل امرأة خطرت بقدميها على ظهر الأرض، أين منها جميلة الحواديت: القو م -حقا- غصن بان، الفم خاتم سليمان، البطن عجين خمران، العين كالفنجان، الشعر ليل يهدر

على الكتفين، الوجه قرص الشمس ساعة الشفق. سحرت حضرة الناظر يوم رآها أول مرة مع أبيها سائق القطار فى طنطا، فنام بجوارها شهراً كاملا يبعث الوسائط والمراسيل والهدايا والتضحيات الكبيرة حتى وافق أبوها على زواجها منه. شحن الناظر زوجه القديمة بعيالها إلى بلدتها بعد أن طيّب خاطرها بكل ما طلبت، وأتت «سنيه» فى احتفال كبير شاركت فيه البلدة والعزب المجاورة، سكنت قصر الأبعادية بعد ترميمه وتجديد أثاثه وحديقته.

فى ليلة دُخلتها وقعت عين عبد المحسن عليها، فحقد على حضرة الناظر حقداً أعاده إلى لياليه البائدة حين كان قاطع طريق حاكم بأمره فى المنطقة. قرر أن تكون سنية له وحده مهما كلفه ذلك من جهود حتى لو اقتضى الأمر أن يقتل حضرة الناظر لكنه -شأن قطّاع الطرق الأصلاء- لم يكن يحب التعجل فى الانقضاض وإلا خسر حياته، فبدأ يدبر الأمر على مهل، يكثر من زيارة حضرة الناظر، يجلب الهدايا المتنوعة. سرعان ما فهمت سنيه مضمون الرسالة، فمعظم الهدايا كانت تخصها هى: زجاجات العطور الفاخرة، الفساتين من مخلفات نساء قصر الباشا، مشغولات فضية بالأحجار الكريمة غضبت نساء القصر على أذواقها «البلدى» علب الحلوى المرسوم على أغطيتها مناظر مثيرة تُوحى بالجنس.. إلخ.

الولد ذكي جداً، أذكى من حضرة الناظر بكثير، عرف كيف يوهم حضرة الناظر أنه لا يقصد هذه الهدايا قصداً إنما هي أشياء تفيض عن قصر الباشا فيأخذها قبل أن تؤول إلى الخدم، وأنه يوزع منها على الكثير من معارفه وليس حضرة الناظر وحده. ولما كان الجشع والسلطة، تركيبة أصيلة خفية في نفس حضرة الناظر فإنه كان مستعداً التصديق دون أدنى تشكك سيما وأن الأمر صحيح في مجمله، بل كثيراً ما كان يوحي لعبد المحسن أن يجمع له ما قد يتبقى من زجاجات الخمور في سهرات الباشا، وهو في الواقع يكاد يُعز له أن يختلس زجاجات كاملة مقفولة إذ هو يعلم أن عبد المحسن منوط بشراء الصناديق وجلبها لسيده من المحلات ومن الجمارك أحيانا.

كانت هذه المساومات- المازحة في البداية- هي المشجع لعبد المحسن على تقديم الهدايا لسنيه صراحة. فقد أيقن من أن حضرة الناظر لا مانع لديه من قبول أي شيء. نفّذ له مطلبه فأغرقه في بحر من زجاجات الخمر الفاخرة، وأغرق حبيبة قلبه بما لم يكن يخطر لها على بال من الملبوسات والمشغولات والعطور والحلوى، فبات يعيش في عبّها، تحت ثيابها، رائحته تملأ خياشيمها على الدوام. فكانت وهي ترتدي القمصان الحريرية وتتعطر للنوم لزوجها تشعر كأنها تمون عبد المحسن الذي حقق لها كل ما حلمت به وهي فتاة من فساتين وقمصان

واصفية وتوكات شعر كالتحف وإيشاربات ومناديل وجوارب.

أصبحت تجد نفسها مرغمة على المقارنة بين حضرة الناظر وعبد المحسن، فتجد أن عبد المحسن هو الأنسب لها من جميع النواحي، تجد لذة في نطق اسمه مجرداً: محسن، في حين ظلت تنادي زوجها -حتى في الفراش- باسم حضرة الناظر. هو الآخر لم يحاول لفت نظرها لهذا، بل كان يشعر بكثير من اللذة الغبية لأن زوجه لم تتجرأ عليه بعد فمن الأفضل إذن أن تظل هكذا حتى لا تسقط هيبته في نظرها.

لشدة غبائه لم يشعر بنمو العلاقة بين زوجه وعبد المحسن. فبعد أن كانت في تكتفي بوضع صينية الشاي وتختفي صارت تجلس معهما فيما هما يحتسيان الخمر والسجائر الملفوفة بالحشيش، تتفنن في إعداد المزّة والأطعمة الشهية إكراما لعبد المحسن. وبعد أن كانت تلبس الثياب المحتشمة في وجوده صارت لا تستحي من لبس القمصان الخليعة التي تكشف مفاتن جسمها التي تجسدها، موحية لزوجها بأن عبد المحسن ليس غريبا، بل كانت تمعن في مداعبة زوجها أثناء انتشائه مداعبات جنسية صريحة كأنها تعلن اشتهاءها لعبد المحسن الذي اعتاد- إمعاناً في جذب الثقة -أن يغض الطرف بحياء مصطنع. كان بارعاً في التسلل إلى المنطقة المحرمة دون مخاطر على الإطلاق، براعة قاطع طريق يعرف كيف يلبد في حقول الذرة

وقتاً طويلا للانقضاض في اللحظة المواتية فحينما كان حضرة الناظر يفرط في الشراب مفتعلاً حالة سُكر لم يكن هو يشرب الملعوب، إذ هو يعرف جيداً أن حضرة الناظر يختبر تصرفه حيال زوجه المتبرجة.. حينئذ كان يحسن التصرف، يفعل اللازم نحو إفاقة حضرة الناظر وهو في غاية من الثبات والتحفظ ساخراً من نظرات حضرة الناظر التي يختلسها بغتة فيجده جالساً في مكانه واضعاً ساقاً على ساق مطرقاً في الأرض بجدية شديدة فيما جلست سنية بعيداً عاقدة ذراعيها حول صدرها. فما أن يسترد الناظر وعيه حتى يبادر هو بالانصراف في الحال مصراً على المضيّ وحده حتى الباب الخارجي كي لا يثير أية شبهة لدى حضرة الناظر.

الواقع أنه ضرب عصفورين بحجر واحد: أدخل الاطمئنان من ناحية على حضرة الناظر فأصبح يأتمنه على التواجد في منزله أثناء غيابه، وفي نفس الوقت أشعل اشتياق سنية التي ظنت أنه غير راغب فيها فأصبحت تتعمد إغراءه بشتى الوسائل، ربما لعدم خبرتها بالمثل القائل: «التقل صنعة».

من بين الهدايا التي قدمها لها عقد كالتحفة الفنية أهدته له بنت الباشا ليهديه إلى خطيبته في المستقبل، عبارة عن مجموعة من الودع -صدف البحر- الصغير الحجم، مشبوكة في بعضها بحلقات من الفضة، يتوسطها- على الصدر تماما- رقعة من

الفضة فى حجم علبة الكبريت منقوش عليها آية الكرسى وسورة يس بخط دقيق واضح. سُرَّت به سروراً عظيماً فلم تخلعه منذ شبكه حضرة الناظر حول جيدها بيد مرتعشة.

فسرَّ حضرة الناظر سرَّ ولعها بهذا القرط تفسيراً شديد الخبث لم يسترح له عبد المحسن الذى كان يظن أن حبها للعقد وإصرارها على لبسه حتى وهى تستحم راجع إلى حبها للعقد نفسه كتحفة جميلة من ناحية، ولأنه من طرفه من ناحية أخرى. إلا أن حضرة الناظر بعد ما شرب الكثير من الكئوس ذات ليلة علق ضاحكاً وهو ينظر إلى العقد المضىء على جيدها بأن العلاقة بين زوجتة وبين الودع قديمة وحميمة ولهذا فقد استقر العقد فوق صدرها متسقاً مستريحاً كأنه عَثَر على بيته الأصلى. لحظتها قال عبد المحسن فى براءة:

– «هل فى أهل الست أحد ممن يصطادون المحار بحثاً عن اللؤلؤ؟ أنا سمعت من بنت الباشا أن هذا العقد شغل يدوى من نساء الخليج العربى من المحار الذى يصطادوه أزواجهن بحثاً عما فى داخله من اللؤلؤ؟ فاللؤلؤ يشتريه الأغنياء من أمثال نساء الباشا! والمحار يشتريه غير القادرين لكن لجماله فإن الكثيرين من القادرين يحبونه أكثر من اللؤلؤ! وهو جميل فعلاً! من يره على صدر الست سنية يتصور أنه بمليون جنيه!»

أسرعت هى قائلة فى تلقائية:

– «هو عندى يساوى أكثر!»

ويبـدو أن هذا الرد لم يعجب حضـرة الناظر مع أن عبـد المحسن قد فرح به وأشرق له وجهه. قال حضرة الناظر مجتهداً أن يكون سليم النية.

– «خل بالك معى! أصل الحكاية أن سنية كان لها جدة حلبية تضرب الودع وتشوف البخت وتقرأ الكف والفنجان!»

بهت عبد المحسن، ففغر فاه ولزم الصمت متوقعاً كارثة تشعلها سنية لما بدا له إهانة وقعت عليها من حضرة الناظر حتى لو كانت غير مقصودة. تمثلت لعينيه سنية امرأة غجرية تطوف القرى حاملة سفطاً مبطناً بالخيش منادية بلسان معوج «أضرب الودع واشوف البخت واشوف... وشوف»، فإذا ما طلب إليها أحد أن تشوف له بخته حطّت السفط وتربعت على الأرض فأخرجت كيسة صغيرة مـلأنة بالرمل وبعض قطع من الودع، فبعد أن تعرف اسمه واسم أمه تروح تخط بإصبعها فى كومة الرمل وتشخلل قطع الودع فى كفيها ثم تبدأ فى قراءة البخت على صاحبه.

توقع عبد المحسن أن تغضب سنية من التعرض بجدتها، لكنه فوجئ بوجهها وقد أشرق فجأة بمشاعل من الفخر الوردى. كأن حضرة الناظر قد ذكّرها بأعز أمجادها. تفجرت الضحكة المرحة على ثغرها بصوت صافى الرنين. قطعتها

مشوحة في وجه زوجها بذراعها البض المبروم:

– أيوه يا حضرة الناظر! إيش فكرك بالغالية؟ النبي أشرف خليقة الله كانت عرافة بحق وحقيق! كان لنا بيت مخندق وسط عشش حارة الحاج يمتلئ كل ليلة بالناس الذين جاءوا لبختي من كل بلد: عُمد ومشايخ وبكوات وباشوات تضرب لهم الودع والرمل وتفتح الكتشينة والمندل وتقرأ الكف والفنجان! عشنا في خيرها سنين طويلة! أصلها خالة أبي! تصور يا حضرة الناظر أن أمي دار عليها خُطّاب من كل لون: أعيان وموظفون وتجار وفلاحون وجدتي راسها وألف سيف لا تُزوجها إلا من دمها! لو جاءت الدنيا على رقبتك ما رضيت بك زوجاً لي لو لففتني بالذهب! أنا كنت أحبها، أقعد أتفرج عليها بالساعات وهي تشرب الشيشة! كانت تحب أن تعلمني الصنعة فترد على كل سؤالاتي! تعلمت منها حاجات كثيرة! كنت أبص في عين البني آدم فأعرف ما يفكر فيه! وكنت أشعر بمجيء الضيف من لحظة ما يخرج من داره! وقبل أن تجيء أنت لتخطبني رأيتك في المنام راكباً بغلة وأبي يضعني أمامك على ظهر البغلة وأنا أصوت من الخوف!».

ثم أكملت ضحكتها، فتحول وجهها وجيدها وكل ما ظهر من جسمها إلى كئوس من عصير الورد يتدفق على كتفيها صانعاً هذا القميص الحريري الأحمر.

منذ تلك الليلة أصبح بينهما مفتاح مداعبة: كلما رآها على انفراد فى لقاء عابر يهمس بلهجة ذات معنى:

– «متى تضربين الودع؟ نفسى أشوف بختى!»

فترد باسمة:

– «ارمى بياضك!»

فيمسك قلبه بيمناه هاتفا فى فحيح:

– «تفضلى !هو ذا بياضى!»

فتكتم ضحكة نزقة مغتبطة وتتقدمه داخله تاركة إياه يغلق الباب، أو تلوح بيدها محيّيه وهى تغلق الباب خلفه. فى ليلة فاجأته وهى تفتح له الباب:

– «قلت إنك تحب أن أشوف لك بختك؟!»

توقّف مأخوذاً:

– «فى عرضك!»

همست فى فحيح مبطن بالتحريض:

– «حضرة الناظر يسافر بكرة! الباشا كلّمه بالتليفون وطلب أن يروح الصعيد ليستلم حاجات من هناك! سيغيب يومين! ربما ثلاثة! اتفقنا أن أسافر إلى طنطا لأقعد عند أمى ليفوت علىّ وهو راجع ليأخذنى! لو قابلتنى وأن ماشية يمكن أن ندبر شوفان البخت على رواقة!»

تكلمت كطفلة غريرة عابثة فأثارت حميته، شعلت شهوته

فارتبك في طريقه إلى الكنبة، على غير المنتظر جلست بجواره على الكنبة المكسوّة بالكرتون المشجر، أسندت كوعها الأيسر على حافة المسند. بدوره أسند كوعه الأيمن على المسند. تقابل الوجهان كأنما لأول مرة في حياتهما. نضجت العيون بسر كان بينهما مطويا منذ شهور طويلة وها هو ذا ينفضح تماماً. عيناها جورت نار ملتهبة يزغرد فيهما صوت لهيب الشبق الذى طال كبته. أما هو فكان في شدة الارتباك والتوتر، شعر كأن جرأتها هذه البادية في نظراتها ستؤدى بعد برهة إلى كارثة محققة. ثدياها بارزان من تحت القميص كقرصين من عجين انفعصا في بعضهما دون أن يضيع الخط الفاصل بينهما. تهدج الخوف في صوته:

- «أين حضرة الناظر؟!»

شوّحت بذراعها البضة العارية إلى بعيد:

- «ركب الفرس إلى حوض البقمة يجمع أكلة خضراوات طازجة للباشا ستأخذها معك! أوصاني أن أجعلك تنتظره هنا فهو لن يتأخر!»

مطر بارد ينزل على ظهره، سرعان ما تبخر من حرارة دبت في جسده. زام زومة أشبه بزئير أسد مكتوم:

- «أحب أن أشوف بختي الآن!»

واقترب منها قليلا. مدت يدها لتخلع القرط:

- «خذ وشوش الودع!»

أمسك يدها

- «لا تخلعيه! سأوشوش وهو في مكانه!»

مال على صدرها بأنفاس لاهثة، صار يلثم القرط حبة حبة يمرغ وجهه وأنفه في عجينة الثديين سكراناً بنكهة الجسد الأنثوي المشدود. حبات الودع متخشخشة ترشرش نفسها في صخب. أما هي فراحت تنتفض، تسند ذقنها فوق رأسه المتمرغ في صدرها ضاحكة في وجل. حلمة ثديها كانت منتصبة تحت شفوف القميص الوردي فأطبق عليها بشفتيه وراح يمصها في نشوة عارمة. حينئذ تناهى إليهما صهيل الفرس، فارتدا عن بعضهما منفصلين مرتعدين، ثم انتفضت هي قائمة تعدل نفسها كدجاجة منتفشة الريش. ذهبت إلى الشباك المطل على الطريق الزراعي. اتكأت بمرفقيها على حافته مرسلة بصرها إلى بعيد حيث كانت سحابة من الغبار تتعاظم في هبوبها وتدومها على هيئة فرس تتقافز في إيقاع راقص، ومن فوقها حضرة الناظر مرتدياً الجلباب السكروتة السمني على رأسه قبعة من الخوص، ممسكاً باللجام في يد وبالكرباج في اليد الأخرى، ومن خلفه ثلاثة حمير محملة بأقفاص ملأى بالخضراوات الطازجة يسوقها اثنان من التملية. كانت ستية تعرف أن حضرة الناظر سيقضي وقتاً طويلاً بعض الشيء حتى يصعد إليهما، فهو لابد أن يدخل

إلى الحظيرة ليربط الفرس بنفسه، وينتظر حتى يفرغ التمليّان ما في الأقفاص من خضروات على حوض الطلمبة لغسلها جيداً ثم يدبانها في صناديق من الكرتون.. لكن سنية أحبت أن يراها واقفة في الشباك تنتظره كالعادة، ولسوف تظل واقفة هكذا حتى يصعد إليها.

استرد عبد المحسن هدوءه وأشعل سيجارة مبططة ماركة البلاذي التي يغرم بها كسيده، أو التي أدمنها بحكم ما يختلسه منها من سجائر سيده. لكن خياله كان متشتتاً. وجد نفسه يسأل سنية سؤالاً غريباً غير متوقع:

– «يعني لم نرك حاملاً حتى الآن!! ألا ينوي حضرة الناظر أن ينجب منك؟!»

ضحكت ضحكة صاعقة. لوت رقبتها، سربت صوتها من فوق كتفيها:

– «يريد طبعاً! المشكلة أن البذرة تقع منه قبلما تحصلني! ويقع هو بعدها يضرب رأسه بيديه! صعبان عليّ حضرة الناظر هل تتصور؟! ما كان يصحّ أن يتزوجني! إنما هي القسمة والنصيب!! المكتوب ما منه مهروب!»

أوشك أن ينطق: تاخت والقيناها فدعك إذن من حضرة الناظر وتعال لنتزوج الآن على سنة الله ورسوله لكنه بدلاً من أن يقول ذلك وجد نفسه يقول:

- «شوفي لي بختي! شوفي بختنا معاً! أنا وشوشت الودع بكل ما في قلبي! والودع يوشوش صدرك كل لحظة!»

مدت كفها البضة المتختخة، ملست على حبات العقد. في الحال تلبستها شخصية جدتها العرافة الحلبية. انفرط لسانها بنفس اللهجة الغجرية ذات الأصول البدوية العريقة، تتآكل فيها حروف وتتفاخم أخرى، تتقلوظ حروف وتتضفم أخرى:

- «وحد الله! خطاويك رجل في الجنة ورجل في النار قول يا ستار!.. السعد والوعد قدامك ما في منهم حدً خدامك ما في غير المولى الكريم يمسك لجامك في قعدتك وفي قيامك في نظرتك وفي سلامك قول ربنا ينور السكه قدامك!.. قلبك مشعلل نار والحبيب قادر يجيلك لحد الدار بس يا خسارة لانت ولا الحبيب أحرار!.. مكتوب على جبينك الفرح والجرح لاتنين سوا!.. واحد يهمك أمره يفديك بعمره يا ترى مين هو؟!.. وفي النهاية كل شئ بيد الله ما حد يقدر يرد قضاه قول يا كريم!»

مع كل عبارة من هذه العبارات كانت كفها لا تني تتحسس حبات الودع على جيدها كأنها تغترف الكلام من ثدييها وتُلقى به في وجهه. وكانت جادة متجهمة بصورة أفزعته حتى لقد تخيل أن جنياً تلبّسَها فاستطالت قامتها وضوعف ظلها.

استمع إليها في إمعان شديد، هازلاً في أول الأمر لكن العبارات لمست شعيرات قلبه من الداخل فارتعد ودرءاً للخوف

الناعض أطلق ضحكة عالية جهد ليجعها مازحة. ثم أشرق موعد الغد في رأسه فانتشى: يالها من فرصة العمر، فلسوف ينفرد بها لتشوف له بختة على الحقيقة، سوف يأخذها إلى شاليه الباشا على شاطئ العجمى فى الإسكندرية يقضى معها يوماً بي ليلة. لكنه ما ابث حتى ضرب رأسه بكفه في حنق وغضب، إذ تذكر أنه بعد قليل سيعود إلى الباشا ليمكث معه حتى نهاية الأسبوع. هل تضيع منه فرصة العمر بهذه السهولة؟! لا، لن يتركها تضيع أبداً، فمن حقه أن يتغيب عن الباشا يوماً أو يومين بعد كل هذه المثابرة على الدقة فى المواعيد. لسوف يكذب على الباشا لأول مرة فى حياته، كذبة تفوت ولا أحد يموت، ولكن أية كذبة يا ترى يمكن أن تدخل على الباشا فيصدقها فيقبل إعطاءه اجازةً ليوم أو يومين؟ بسّ، لقد وجدها، لا كذبة غيرها تصلح للخروج من هذه الورطة: سيمر على سنترال طنطا في طريقه إلى القاهرة، من مكتب البرق يرسل برقية إلى نفسه بتوقيع أخيه يقول فيها: إحضر حالاً أمك في خطر، يُستحسن أن يشطب كلمة فى خطر فإن الباشا قد يتصل بسراى التفتيش ليسأل عن مدى الخطورة فينكشف الأمر، أما لو كتبت توفيت فإن الباشا لن يجد مجالاً للاعتراض وسيعتقه، ومن السهل عليه بعد الأجازة أن يشكر الباشا ويخبره أن أمه تجاوزت الأزمة ودبت فيها الروح ثانية.

حين سمع خطوات حضرة الناظر تصعد على السلم همس بسنية:

«سأقنع حضرة الناظر بأن يدعني آخذك الآن لأوصلك بالسيارة إلى بيتكم في طريقي للقاهرة! وغداً في الضحى تنتظريني على محطة طنطا لنذهب معاً مشواراً صغيرا أفسحك وأريك الدنيا! ماشي؟!»

أومأت برأسها موافقة..

حسبها حضرة الناظر على النحو التالي: أن تسافر زوجه في سيارة ملاكي معززة مكرمة بسائق الباشا نفسه أفضل من سفرها بركوبة يسوقها تملّي جربان، منظر يشرفه في نظر أهلها، ثم إن عبد المحسن حسب موعده مع الباشا- وبالأخص لأنه يحمل خضراوات طازجة- لابد أن سرع في مشواره أي أنه لا وقت لديه للمرقعة في الطريق. وهكذا ملس بكفه التخينة على كرشة البارز معبرا عن رضائه الشديد بهذا الاقتراح الوجيه، ثم أمر زوجه بأن تلبس هدومها.

على غير العادة سأله الباشا باهتمام شديد عن أخبار أهله، وكان مبتهجا وفي غاية الرقة والإشفاق. هدته فطنته إلى القول بأنه قلقان بعض الشيء إذ ترك أمه في حال سيئة من المرض. فإذا بالإشفاق يطل من عينيّ الباشا، وإذا به ينهض فيحتضنه في حرارة يربّت على ظهره بأبوة حانية، ثم يشد على يده:

– «معلهش يا بني! هذا حال الدنيا! شد حيلك!»

ثم يسحب برقية من تحت الجرنان:

– «جاءتك هذه منذ عشر دقائق!»

ومد يده في جيبه، أخرجها برزمة من النقود، انتقى منها خمس ورقات بعشرة، غمزه بها فى يده:

– «اتكل على الله بسرعة! ربنا معاك!»

فى طريق عودته إلى البلدة لعبت به النشوة فرفع صوت مذياع السيارة على أغنية محمد عبد المطلب "يا بو العيون السود ياللي جمالك زين.. ميتى الوداد يعود وننول مناها العين" يخيل إليه أن الأغنية تنطق بلسانه. ها هي ذي الحيلة قد نجحت بأكثر مما يتوقع، لسوف يقضي ليلتين من ليالي العمر على نفقة الباشا فخمسون جنيهاً ليست بالقليل، يستطيع أن يشترى بها بيتاً كاملاً لكن ليلة واحدة مع سنية تساوى الدنيا وما فيها. لخير له الآن أن يبعد ذهنه عن شاليه الباشا ويستأجر شقة ليلتين. فكرة طيبة أن يمر الآن على سنية -فحص على الخط- ليؤكد لها موعد الغد من ناحية، ومن ناحية أخرى يساعدها على التفكير في تدبير حيلة تطمئن أمها على غيبتها ليلة أو ليلتين بحيث لا تستريب الأم فى شئ.

ما لم يكن يخطر على باله أبداً أنه بمجرد ركوبه السيارة شعر الباشا بحزن شديد جداً لما أصاب سائقه عارسه معفية.

شعر أن إعطاءه خمسين جنيها أمراً ليس كافياً للمشاركة في مصاب كهذا، شعر بكثير من تأنيب الضمير، فـ«الواد» لم يقصر في خدمته أبداً، ويفديه بحياته، يمنحه الأمن والاطمئنان يخلص له في كل شئ،فكيف به يتركه وحده في محنة كهذه؟..

وهكذا أمسك بسماعة الهاتف وطلب سراى التفتيش فى ضهر الجمل لم يكن ثمة أحد فى السراى، فحضرة الناظر بعد انصراف زوجه طلقت فى رأسه فكرة مبهجة: إنه منذ تزوج من سنية لم يعرف الجماع لذة على الإطلاق على عكس ما كان يتوقع من فرط جمالها الذى أصابه بلوثه. ما من مرة ضاجعها واكتمل اللقاء على النحو المرجو، إما أن يتخاذل إلى الرقاد كمداً وإما أن يسقط لاهثاً قبل الوصول. وليس من تفسير لذلك سوى أن زوجه السابقة قد عملت له عملاً من السحر يربطه عن سنية. عندئذ شعر باشتياق شديد لزوجه أم العيال، تذكر بكثير من الزهو أنه لم يفشل معها مرة واحدة بل كان دائما أبدا فى أشدّ انتصاب وقوة: تجمع القرار فى رأسه حاسماً باتاً لا رجعة فيه: لسوف يركب من فوره إلى زوجه السابقة ليبيت فى سريرها هذه الليلة ومن عندها يتوجه صباحاً إلى الصعيد، إنه لابد أن يفعل ليتأكد مما إذا كان قد اعتراه مؤخرا مصيبة حلت به إلى الأبد أم أنها ربطة عابرة مصيرها إلى انفكاك؟.. قام التملّى بتوصيله بالفرس إلى محطة نشرت، ومنها ركب القطار إلى بلدة

زوجه متمثلاً حلاوة المفاجأة التى سيفجرها حضوره غير المرتقب.

توصيلة الهاتف فى شقته السكنية فى الطابق الثانى ولكن الجهاز الأم موجود فى المكتب المفتوح على الدوام ويسمى بالديوان، حيث يجلس أكثر من تملّى وأكثر من خفير. وكان الخفير محمد سعد هو الجالس القرفصاء على مصطبة تحت ظل الصفصافة المواجهة اندفع مهرولاً إلى الديوان، رفع السماعة، ضرب سلام التعظيم جين سمع صوت الباشا:

- «أنا الخفير محمد سعد يا سعادة الباشا! حضرة الناظر سافر الصعيد يا سعادة الباشا! حرم الناظر سافرت لأهلها ياسعادة الباشا! إيه؟! إنا لله وإنا إليه راجعون! شفتها صباح اليوم فلا حول ولا قوة إلا بالله!»

أخذ شاربه الكثيف الرخو يتراقص على شفتيه فيما هو يردد: حاضر يا سعادة الباشا! حاضر يا سعادة الباشا!. ثم وضع السماعة وانطلق من فوره خبُّ فى جلبابه الكتان الواسع الذيل ينقر الأرض بطرف نبوته إلى دار عبد المحسن جاد الله.

الباب كان مفتوحاً، وأم عبد المحسن تحاول تبييت الفراخ فى أخنانه وعششه، تنقضُ على الدجاجة الشاردة بخفة وخبرة فتمسكها من أرجلها، تطارد الأرانب الشقية. وحينما زحف ظل الخفير محمد سعد على حوش الدار غير المسقوف وضعت كفها

كمظلة على عينيها وجعلت تتمعن فيه مستطلعة سر مجيئه..

- «ساالخير يا ام عبد المحسن!»

- «يسعد مساك يا ابو سعد!»

- «البقية فى حياتك! شدى حيلك!»

صرخت ضاربة صدرها بكفها مذعورة وقد هجت كل الدماء من جسدها. راحت تولول›

- «يا مصبتى! فى مين يا بوسعد؟!»

-‹«فيكى يا وليه!!»

- «أنت اتجننت يارجل انت؟ إمشى جاك مشش فى ركبك راجل قليل الحيا!»

- «يا وليه طولى بالك! سعادة الباشا كلمنى الآن فى التلافون وعزانى فيكى! التليغراف وصل لعبد المحسن بموتك خد فى وشه وطار وزمانه فى السكه! لكن سعادة الباشا الله يستره حيعمل الواجب على أصله! كلفنى أصلح الحته اللى قدام داركم عشان ينصب فيها المعزى! حيبعت بتوع الفراشة يبنوا الصوان ويرصوا فيها الكراسى المذّهب! وحيبعت فقى محترم من بتوع مصر يقرا عليكى ربعين محترمين! وهو بنفسه حيشرف المعزى بالحضور! عايزه تنهبى يا وليه ياللى مانتش وش نعمه؟!»

كادت الوليه تسقط من طولها:

- «فال الله ولا فالك يا غراب البين! إنت راجل ما بتشوفش

مفيش فى مخك ريحة العقل؟ أن واقفه قدامك أهه باكلمك ابقى مت ازاى وتعملولى معزى كمان؟!»

- «يا وليه سيبك من الكلام ده! سعادة الباشا قال إنك مُتى! تبقى مُتى!محدش يقدر يقول للباشا أنت كداب! محدش حيفهم ولا يعرف أحسن من الباشا!!،

- «لا حول لا قوة إلا بالله! اللهم اجعله خير إنت عايز منى إيه؟»

-«عايز أبلغ عبد المحسن واخوه رسالة الباشا عشان يكونوا مستعدين وعشان يشوفوا نفرين يشيلوا السباخ من هنا عشان الصوان بتاع المعزى حيتنصب هنا!!»

- «إنشالله انت! إنشالله انت!! إمشى من هنا! إياك تعمل أى حاجة هنا!»

شوّحَ لها بعصبية شديدة وغضب أشد:

- «المعزى حتتعمل يعنى حتتعمل! وهنا! أوامر سعادة الباشا لازم تتنفذ بالحرف! هى لعبة؟»

تركها ومضى يخب في جلبابه الواسع الذيل..

حين عاد عبد المحسن بعد منتصف الليل، وبعد طول مرقعة فى استراحات الطريق، وجد مساحة الشارع أمام دارهم معبدة، والأنفار قد انتهوا من رشها بقليل من الرمل. التقاه الخفير محمد سعد عند شجرة الصفصاف أمام الديوان، أخبره بكل

شيء. تلقّى الصدمة العنيفة بصلابة المذهول الفاقد لوعيه. لم يرد، توجه إلى أمه التى انكفأت على نفسها فى حجرة الفرن تبكى وأخوه يطيب خاطرها. بكلمات متقطعة لا هثة متخبطة أفهم أمه أن فى الأمر مكيدة فعلها أحدهم، وأن الصباح رباح ولسوف يعالج الأمر بإذن الله.

لكنه حين أغلق على نفسه حجرة المقعد راح يعصر ذهنه فى إيجاد محاولة للخلاص من المأزق لم يتوصل إلى أى حل، وجد نفسه محاصراً تماما. كل شاغله الحقيقى هو «ثقة الباشا» فيه وكيف تزعزعت وسقطت. لم يكن يعرف أن الباشا يحبه ويحترمه إلى هذا الحد، لدرجة أن يقيم المعزى على نفقته ويشرفه بالحضور بنفسه تمنّى لو أن أمه قد ماتت بالفعل وأقيمت لها هذه الليلة المهيبة بمقرىء من القاهرة وسرادق، فأى مهابة كان سيحصل عليها بعد ذلك فى نظر الناس؟ أما الآن فإن الأمر سيتحول إلى نكتة سخيفة بشعة، بل هى الفضيحة الكبرى، سيتعرض الباشا بسببها لكثير من اللوم والسخرية: كيف تثق فى قاطع طريق صايع لا أصل له؟ ها هو ذا قد هذأ بك وصغرك! هل يوثق فى هذا الصنف من حثالة البشر؟ عوضك على الله فى حبك واحترامك له، الحمد لله أن كشفه أمامك على حقيقته قبل أن يوقعك فى مصيبة أكبر.. إلخ.. إلخ.

شاطت كل أعصاب عبد المحسن. أيقن أنه تصرف بغباء كما

لو كان يظن أن الباشا يقيم فى قارة أخرى ولن يصل إليه الخبر الحقيقى؟ كيف توهّم أن الباشا يقيم الحواجز بينه وبين العاملين فى معيته؟ آه لو أن الباشا حقق فى أمر البرقية وعرف أنه هو الذى أرسلها وأن موظف المكتب تواطأ معه نظير رشوة صغيرة! هل يعود هو إلى شغل الليل وقطع الطريق بعد كل هذه الأملة؟..

تعب من التفكير، من تأنيب النفس، من البكاء، تمنى أن لا يطلع الصبح بعد أن كان منذ قليل يستعجل طلوعه...

إلا أن الصبح طلع رغم أنفه دون أن يراه، ربما أثناء غفوة خاطفة انحنى لها رأسه على صدره فما أن فتح عينيه فجأة حتى رأى الضحى العالى يفضح كل شئ. سمع لغطاً وزعيقاً حاداً ميزّ فيه صوت أخيه وصوت الخفير محمد سعد وسط رهط من أصوات بندرية طلقة حاسمة.

فى قفزتين اثنتين هبط درجات السلم الطينى إلى حوش الدار منه مباشرة إلى الخلاء، ليفاجأ بأن الدنيا قد تغيرت، أمطرت السماء أطفالاً وصبياناً ورجالاً. شياطين الفراشة المدربون ذوو الأجساد المربربة المبرومة قد انتهوا من دق العواميد فى الأرض، يتسلقون درجات سلم خشبى متنقل، ينهمكون فى طرح أقمشة السرادق على الأعمدة والحوامل غير مكترثين بأى شئ مما يدور حولهم، لقد جاءوا فى مهمة محددة

قبضوا عليها أجراً لابد من تنفيذها سواء رضى أهل الدار أو خبطوا رءوسهم فى الحائط. تلال من الكراسى مرصوصة فوق بعضها استعدادا لصفها، الدكة التى سيجلس عليها الفقيه وميكروفون أيضا؟ ما كل هذه الأملة؟!..

وقف ساكناً صامتاً فاغر الفم كتلميذ أتى ذنبا لا يغتفر، ليس يدرى ما ينبغى عليه أن يفعله الآن، لقد كذب على الباشا كذبة فاضحة ولم يعد مستعدا للوقوف ضد إرادة الباشا أو حتى الاعتراض بأى شكل.

كمن ماتت أمه بالفعل عجزت ساقاه عن حمله فهوى على الأرض متقرفصاً مسنداً ظهره للحائط تملأ الدموع الكثيفة عينيه وحلقه. لحظتها -شأن الفلاحين دائما فى مثل هذه اللحظات- جاء من جلس بجواره صامتاً حزيناً، جاء من يواسيه. ورغم أن أمه كانت قد جعلت تروح وتجى فى حوش الدار مخطوفة اللون تتفرج على ما يحدث، فإن أكثر من واحد جاء وسلم عليه وربت على ظهره قائلا:

- «شد حيلك! آدى حال الدنيا! خلفت لك طول العمر!»

العجيب أنه يتقى كل ذلك بحزن حقيقى، يرد على كل من يواسيه ردود من يتلقى العزاء فعلاً. شلَّ عقله تماما، لم يعد يشغله سوى اللحظة التى ستقع فيها عينه على عين الباشا، تمنى أن تقوم القيامه لتذهل الجمع حتى لا يتم حدوث ما يحدث.

إلا أن كل شيء تم على خير ما يرام في وقت قليل. انتصب السرداق فخماً مبهجاً وامتلأت أعمدته بالفوانيس الملونة كما ارتصت الكراسي في عدة صفوف متقابلة، بدأ العمال يجربون الميكروفون الذي أدير بواسطة ماكينة لتوليد الكهرباء تتكتك بصوت عال. امتلأ الفضاء ببوق سيارة قادمة، فهبت أسراب الأطفال في استقبالها بصياح كبير، سرعان ما توقفت على مقربة من السرادق ونزل منها شيخان معممان في غاية من الفخامة والأبهة فاقتادهما بعض الرجال إلى مكانهما في السرادق. ثم فوجئ عبد المحسن برجال كثيرين من خدم الباشا وخفرائه قد أتوا إليه في جلسته، فنهض لاستقبالهم مسلوب اللب، سلّم عليهم، ردد العبارات التلقائية التقليدية:

– «سعيكم مشكورا! سعيكم مشكور!»

ثم تبين أنه يجب أن يظل واقفاً في فتحة السرادق لأن طوائف من الناس قد بدأت تتوافد مخترقة الطريق نحوه مباشرة لتحتضنه..

على أن المفاجأة التي صعقته حقاً هي ظهور أمه في حوش الدار مقبلة نحو السرادق، وقد ارتدت جلابيتها القطيفة السوداء وتلفعت بالطرحة البيضاء، تحمل صينية نحاسية ترتعد فوقها فناجين القهوة. مادت به الأرض، تطوح، تعثر، استقام مترنحاً وهو ينسلت من دائرة المحيطين به متجهاً في غضب نحو أمه

ليدركها قبل خروجها من حوش الدار. سدَّ عليها فتحة الباب، دفعها إلى الداخل برفق يتنحنح بحثاً عن صوته الضائع، همس لها بفحيح يائس مهزوم:

- «لا داعى للفضايح يا أم! كفى! بعد دقيقة واحدة تجيئنى نقطة!»

فوجىء بأنها تبتسم، بل مشرقة الوجه مبتهجة كأنها عروس فى ليلة زفافها. بكتفها أزاحته فى دلِ وخفر بحركة تشى بكثير من المرح:

- «إبعد عنى! يجب أن أرحب بضيوفى! هم ضيوفى أنا! كل هؤلاء الناس جاءوا للبكاء علىّ! للعزاء فىّ! أقل واجب أن أقدم لهم التحية!! ولكن مالك حزين هكذا كأنى متّ فعلا؟! أنا والله فرحانة فما رأيك؟! وطربة المرحوم الغالى فرحانة كأنى عروس! ما كنت أظن أنى عزيزة على هؤلاء الناس كلهم! هل يشوف الواحد هذا الفرح المعمول له ولا يفرح؟ هذا يكون بطراً بالنعمة! وسّع لى كى أقدم لهم القهوة بنفسى! والله لو كنت أعلم أن جنازتى سيحضرها باشوات وبهوات لمت من الآن إكراماً لخاطرهم! يا عالم إن كنت سأشهد هذه الجنازة يوم موتى الفعلى أم لا!! وسع وسع!»

فيما هو يفكر فى وسيلة يمنعها بها من الخروج ارتفع اللّغط وتموجت الظلال وامتلأت الأرض بالحركة، رددت أصوات:

الباشا وصل! الباشا وصل!. عندئذ تركها رغماً عنه، ارتدّ مندفعا إلى الخلاء باحثاً عن سيارة الباشا، لمحها واقفة لتوها أمام خط شجر الصفصاف المحاذى للدور.

نزل الباشا وحوله رهط من الرجال، أقبلوا يتقدمهم هو نحو السرادق فى خطو مهيب جدا، فإذا بزغرودة رنانة تطير فى الهواء محلقة نشوانة صافية. ارتفعت أعين الرجال فى استنكار، غادرت العيون محاجرها خلف اصداء الزغرودة، تعانقت مع الزغرودة التالية، فالرابعة. كان عبد المحسن وهو يحتضن الباشا فى حرارة ويدفن رأسه فى صدره باكياً، يفكر فى عبارات مؤثرة يطلب بها عفو الباشا وغفرانه، لكنه كان يشعر بالخجل حتى النخاع سيّما وقد تبين أن أمه هى التى أطلقت الزغرودة فى استقبال الباشا كأنما لتزيد الطين بلة لتغرقه هو فى مزيد من الأوحال.

دفعه الباشا برفق وحنان إلى السرادق، حيث سلم على الجميع فرداً فرداً، ثم اتّخذ مجلسه فى الداخل بجوار المقرئين، ليفاجأ بعد قليل بسيدة عجوز صلبة القامة مشدودة الحيل ترتدى جلباباً من القطيفة السوداء وتلفع رأسها بطرحة بيضاء، ممسكة بصينية عليها فناجين القهوة، ومن خلفها شاب صغير يحمل إبريق القهوة وإبريق الماء. مرت على الجميع واحداً واحدا تعرض القهوة. بعضهم شكرها بحركة رقيقة من يده يبعد بها

الصينية في حزن متقن الصنع بإحكام، بعضهم الآخر شكرها وأخذ فنجاناً، حتى إذا ما وصلت إلى الباشا خلصت يمناها ولفتها فى الطرحة وسلمت عليه بقوة كأعتى الرجال:

- « نورت بلدتنا يا باشا! منجيكش فى مكروه أبداً! إلهى ربنا يفتحها فى وجهك دنيا وآخره! الله يجبر بخاطرك يعطيك طول العمر!»

ثم مضت فى خطو ثابت حتى اختفت داخلة للدار..

ران على السرادق صمت رهيب استمر برهة طويلة قطعها المقرىء الذى اعتدل فى قعدته وانعدلت أمام شفتيه سماعة الميكروفون. حين لعلعت فى حوش الدار عبارات: «كل نفس ذائقة الموت»، «ويا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية»، كانت أم عبد المحسن متربعة على المصطبة فى قاعة الفرن التى تنام فيها، فأخذت تلهج فى ابتهاج وغبطة:

- «يا حلاوة! دهده دهده! إيه الأمله دى كلها ياجا الخالق يابنت ست الدار! اللهم لك ألف حمد وألف شكر! شفت معزتى بعينى! شفت خَرجتى!»

كانت وحدها فى القاعة، ربما فى الدار كلها، ربما فى الكون كله. فاستلقت على الأرض متمددة تنصت فى استمتاع شديد إلى صوت المقرىء الذى سحرها جماله وجمال القرآن.

بعد الربع الثالث نهض الباشا فودع الجميع ثم انصرف.

بعده بقليل انصرف المقرآن معاً، ثم بقية الرجال. وفيما كان العمال يفكون السرادق تناهى إلى أسماعهم صوت صرخة علية أطلقها شاب مرتاع: تعاليلى يا امه. نظر عبد المحسن تلقائياً فى حوش الدار فرأى أخاه يلطم خديه مشيراً إلى قاعة الفرن. اندفع يجرى، اقتحم القاعة ومن خلفه بعض الرجال. رأى أمه ممددة على الأرض بلا حراك. انكفأ عليها يهزها يناديها، لكن لا حياة لمن تنادى. كانت جاحظة العينين، على شفتيها بسمة عريضة شاحبة، كأنها تتطلع إلى كل ما حدث بنظرة وديعة راضية.

قلب الشجرة

شوّح أبى فى وجه أمى بذراعين معروقتين كفرعى سنط انحسر عنهما كُم الجلباب الواسع، ثم أمسك طوق جلبابه بيديه وهزه علامة على أنه يوشك أن يشق الهدوم من فرط الحنق والغيظ - وهى حركة يفعلها دائما كلما استشيط ليقمع بها غضبه.. ثم صاح بصوت دافىء حريف:

- «سبحان الله فى طبعك! إنت يا وليه غاوية نكد؟!

يصعب عليك نفرح ولو ساعة واحدة فى العمر؟!

داهية تسم بدنك!!»

لحظتها كانت أمى متربعة على الأرض فى حوش الدار، ساندة كوعها الأيسر فوق ركبتها المرفوعة، بنفس الثوب الجديد الذى كانت ترتديه فى فرح أختى ونيسه منذ ساعات قليلة، مريحة خدها على راحة يدها، مرسلة بصدها إلى الشجرة الواقفة أمامها قرب باب الزريبة وعتبة منخ الجمل. الدموع تنهمر من عينيها دافقة بغزارة كرخات المطر، وقد انتشر على وجهها فزع ورعب، فبدا كأنها تتوقع خطراً داهماً كهول يوم القيامة ما يلبث حتى يكتسح الدار كلها بل الكون كله. جَمدها الهول المجهول فى مكانها فبدت كأنها شُلَّت، تريد أن ترفع بالصوت أن تهيل التراب على رأسها تستغيث غير أنها لا تستطيع.. مما جعل فئران الدنيا كلها تلعب فى عب أبى..

كنت واقفاً بينهما وقد شملنى الرعب من منظر أمى الذى لم أعرف له سبباً. من فرط الرعب ركزت البصر على أبى لعلنى أتكشف شيئاً حدث بينهما قبل الآن وأدى إلى هذه الحالة التى وصلت أمى إليها وأصداء فرح أختى ونيسة لم تختف بعد من دارنا. رأيت مشروع البسمة الذى يبزغ دائماً على شفتى أبى كحركة مكملة لحركة شقّ الهدوم الوهمية، فخفق قلبى بشدة إذ أرى الابتسامة قد وأدت فى الحال وها هى ذى روحها الملفوظة تخلف على الشفتين رعشة شاحبة كخفق جناحى الدجاجة الذبيحة حين تستسلم راقدة تحت النزيف. أبى إذن لم يكن أساء إليها من ورائنا، كما أننا لم نسمع أى عراك بينهما طوال شهر الإعداد للفرح. قد فتشت فى ذاكرتى فلم أذكر أن أمى تخانقت هذه الأيام مع زوجة عمى بسبب زحف سطح دارهم على سطح دارنا، وبائع العسل ذو الكلام الصعيدى القارص أخذ بقية حسابه منذ جمعتين، ولم يبلغنا أن إحدى الدجاجات العتاقى ماتت، أو أن دكر البط اختفى، أو أن صرة فلوسها ضاعت فى سوق البلد..

– «مالك يامره؟!»

هكذا صاح أبى بلهجة ودودة. لكن أمى من شدة الانفعال والانخراط فى البكاء العميق لم تستطع النطق، بل يمعن وجهها المدور فى الاحتقان حتى صار مثل كرة من اللهب الأحمر

تتساقط منه قطرات ملتهبة. صرخ أبى بلهجة آمرة:

- «مالك يامره؟! انطقى يا بنت الفرطوس!»

انفجرت أنا باكياً وقد استشعرت خطر مأساة غامضة مجهولة سينزاح عنها الستار بعد برهة. لحظتئذ تمكنت أمى من رفع ذراعها والإشارة بأصبعها إلى الأمام، فنظر أبى ونظرت حيث أشارت، فلم نجد شيئا، رددنا البصر إليها فى توسل. صارت تركز شفتيها المزمومتين المرتعشتين:

- «ال.. شج.. ش.. ش.. شجرة!!»

اكتملت الكلمة بطلوع الروح. لكن أبى التقطها من أول حرف، فشوح فى وجهه مولولاً كالنسوان:

- «تاني! الشجرة برضة! مالكيش شغلة ولا مشغلة غير الشجرة؟! قُطعت الشجرة وشورتها السوده! أيمان المسلمين انتى مره مخلولة في عقلك! تعال يا ابنى سبها تفضى اللى فى دماغها كله! العبارة أنا عارف سببها!!»

سحبنى من ذراعى لنجلس تحت ظل الشجرة نفسها بحذاء السور، جلسة أبى المفضلة، حتى أن الجوال مفروش وعدة الشاى والقُلة والجوزة والقوالح الناشفة متناثرة حوله دائما، مع مسند من الخيش المحشو بقش الأرز. تناول أبى منقد النار صار --كنوع من التنكيل المتعمد بحزن أمى- يفتش عن بقايا الجمرات ليغذيها بالقوالح، قال:

- «اغسل براد الشاى يا ولد»

كنت ميالاً لم يود أن يفعله الآن، فلقعدة الشاى هذه سر باتع فى إذابة الهموم. ثم إن قولة أبى إنه يعرف سر العبارة قد خفف عنى حمل الهم قليلاً. تذكرت فى الحال أن دُخلة أختى ونيسه لم يمض عليها يوم كامل، وها هى ذى الحناء تخضب راحتى وأصابع قدمى، وبقايا كعك الفرح فى سيالتى، وفوق رأسى طاقية جديدة من الطواقى والمناديل التى وزعتها أختى ونيسه على الذين صبَّحوا عليها اليوم فى الصباحية كل واحد بمبلغ من المال.. فلابد أن تكون أمى حزينة على فراق أختى ونيسة، مثلما حزنت على فراق أخواتى تفيده ومريم وحميده، إذ ما يكاد فرح الواحدة منهن ينتهى حتى تشعر أمي أن الدار قد خلت منها فتنزوى فى ركنها هذا وتنخرط فى بكاء صامت لمدة دقائق طويلة، إلا أنه ليس كهذا البكاء الذى تبكيه الآن بحرقة، كان بكاؤها فيما مضى جميلاً، إذ تبكى فيما الجبين مضئ والوجه مبتسم مشرق، بل قد يؤوب البكاء إلى زغرودة مفاجئة أو ربما تستأنف الغناء بالجفان كما كانت تفعل وهى تعد عشاء العروس، تنقى الأرز الذى ستطبخه، تغسل القمح الذى ستخبز منه كعك الفرح، تفرج الجيران على أثواب القماش قبل تسليمه للخياطة. أبدا لم تكن مرتعبة هكذا وكأنها تسترحم عزرائيل الموت الذى جاء يتبغى أبناءها..

– «هات القلة يا ولد وفتح عينيك احسن اقوم ألطّش لك انت وامك واخليها نكد بحق وحقيق!» فأيقنت أنه غير جاد فى الهزء بحالتها، وأن همه بما هى فيه أشد من همها بما هى فيه. وحتى بعد أن طاب الشاى وصبه أبى فى الكوب وبدأ يرشف لم يكمل الرشفة الأولى، إذ أعاد كوبه الزنك الصغيرة وصب الشاى فى كوبة ثانية وتركها أمامه برهة تردد خلالها منقلاً البصر بين الكوبة وبين أمى فى ركنها المبتعد، ملامح وجهه تسعى جاهدة إلى الانبساط ليقول لها بلهجة طبيعية: «الشاى يا مره». إلا أنه اكتفى بإزاحة الكوبة نحوها ناظراً لى نظرة ذات معنى. حملت الكوبة ذهبت بها إلى أمى حيث وضعتها أمامها وانتهزت الفرصة فتمعنت فى وجهها باحثاً عن البكاء القديم فلم أجد سوى الرعب مجسداً فى عينيها لحد الذهول. كان بصرها مركزا على جذع الشجرة لدرجة أننى أيقنت أنها لم ترنى بل ولم تسمعنى حين قلت لها وأنا على شفا البكاء: الشاى يا امه. لكننى خفت من أبى فاستدرت عائدا إليه، لأجده قد وضع قولحة مشتعلة فوق حجر الجوزة وراح يجذب الأنفاس فى توتر كظليم. جلست متكوراً، فرمقنى بنظرة عابسة أتبعها بصيحة كأنها الزغدة:

– «اقعد كويس !ربَّع رجليك وخليك راجل محترم!»

اعتدلت فى الحال كما قال. صب لى قدحاً صغيراً من الشاى

فى كوبة ثالثة مبتورة الأذن، أزاحها نحوى، تململت فى قعدتى على سبيل التحية والشكر له، وتركتها أمامى لأطيل عمر الفرح بها..

جعل أبى يسحب أنفاس الدخان فى بطء وتؤده، متصنعاً عدم المبالاة مع أننى صرت عاجزاً عن ملاحقة نظراته التى يوجهها إلى أمى فى صمت وترقب. أخيرا اعتدل فى قعدته رافعاً ركبته ناظراً لىّ، فشعرت أنه يكاد يعزم عليّ بالجوزه بل أن يده شرعت تمتد بها نحوى ربما لاعتياده تسليمها لمن بجواره بعد بضعة أنفاس.. ثم راح يتكلم:

- «الوليه دى شايله الشجرة على دمغها!! هى اللى
شارت علينا بزرعها! وهى الى شارت علينا بقطع فرعها!
وهى اللى رجعت ندمت على الفرع المقطوع!! يا ترى الشجرة دلوقتى عيانه؟! نوديها الاستباليه؟! أنا مستعدأجيب لها الحكيم لحد هنا ولا تعمليش فى روحك كده!!!
أيمان المسلمين المرَه بنت الكلب دى لو جابوا لها خبرى
على نقالة ما تقطع فى نفسها كده!! وتقول لى الشجرة؟! دى مسله متخيطش يا مره شوفى مسله غيرها لها خرم
يدخل منه الخيط!!»

واستأنف شدّ الأنفاس فى سأم، مع أن نار الحجر قد انطفأت واحترق التبغ. وكانت الشجرة التى نقعد فوق ظلها الآن

قد صارت أمام عينى كأننى بعيد عنها أراها كلها فرعاً فرعا وورقة ورقة. كان ذلك منذ حوالى سبع سنوات مضت حينما كنت فى حوالى السادسة من عمرى، وقد التم جمع كبير حولها يلغطون يتصايحون: ثمة من يقترح ومن يعترض ومن يوافق ومن سخر ومن يستخسر؟: شجرة جميز بارك الله فيها فى سنوات قليلة فجاءت ضخمة جارمة الأطراف عالية الهامة مكتنزة الجذع بالعضلات البارزة وكتل اللحم مكسوة بجلد من اللحاء الخشن المنظر رغم نعومته ممتدة الجذور على مساحة عريضة تبدو جذورها كالعروق النافرة كشبكة من الخراطيم تحاصر الأرض من حولها كالأخطبوط، مما جعل أبى يكثر من النظر إليها بإعجاب، ثم كأنه يذب عنها عين الحسود المجهول يقول ساخراً:

- «أقطع دراعى إن ما كانت الأرض دى أصلها جبّانه!»

فتصيح أمى مرتعبة:

- «صلى على النبى!»

لم أكن أعرف ما العلاقة بين أرض الجبّانة وشجرة يانعة. كانت أمى واقفة وسط ذلك الجمع كمقاول الأنفار كأرجل الرجال ترسم بذراعيها فى الهواء خطوطا ودوائر تتكلم بثقة آمرة:

- «لابد من قطع هذا الفرع! على عينى والله ياجدعان! قطعُه ولكن للضرورة أحكام! إبنى سيدخل على عروسه بعد شهر! نور عينى أول عريس أفرح به يدخل

فى قاعة الفرن وعندى الأرض واسعة! حتى هذا لا
يرضى ربنا! لن تخسر الشجرة! سنخسر فرعاً
واحدا من فروعها الكثيرة ونكسب قاعة برحة يدخل
فيها الولد! بقطع هذا الفرع تأخذ القاعة راحتها!
فلا تضيعوا وقتكم فى التمحيك! اقطع يا جدع واسمع كلامى
أنا!!»

لحظتـذاك وقف الرجل بالمنشـار ناظراً فى وجـه أبى كـأنه يطلب رأيه فيما سمع. نكسً أبى وجهه صامتاً بما يعنى القبول مع الحزن على ضياع فرع مهم قد يميت الشجرة نهائياً. سأله حامل المنشار: «نقطع يا ابو عماد؟»، فلم يرد، فأشار حامل المنشار إلى معاونه الذى شمر ذراعيه وبصق فى كفيه ثم أمسك بطرف المنشار المستطيل فيما أمسك الرجل بطرفه الآخر. ثبّتا أسنان المنشار على ضلع الفرع التخين جداً يكاد يكون شجرة كاملة قائمة بذاتها بغابة من أفرع تمتد منه. ارتفع زيق المنشار وهو يحفر لنفسه مجرى فى لحم الفرع، بصوت أجش موجع. ثم ارتفع صوت أذين الفرع إلى حد الصراخ الملتاع فيما المنشار لا يرحمه رائحا جائياً ببطء ثابت مكين. ثم راح يرسل عواصف الغبار من فتات لحمه المهَشم بأسنان المنشار الذى ازدادت حركته سرعة وقد آب صوت صراخ الفرع إلى انين مكتوم يكاد يفتت الأكباد، وكانت صيحات الرجال الحذرة قد غطت على

صوته حينما تجمعوا رافعين أذرعهم بعصيٍّ وعروق من الخشب تتقى ميل الفرع للسيطرة عليه قبل أن يسقط بثقله فوق الجميع فيطحنهم. كانت النداوة الخضراء تلمع على منشورين عريضين على شكل القلب أحدهما فى الجذع الثابت والآخر فى الفرع المنبتّ المائل. كاد الفزع يصيبهم فى مقاتل لأنهم كانوا مشغوفين برؤية الشجرة بعد انفصال الفرع عنها. وحتى بعد أن جرجروا الفرع بعيداً خارج الدار سرعان ما ارتدوا عائدين فالتفوا حول الشجرة يتفحصونها من جميع النواحى وكانت بالفعل كالثكلى، تقف منكسرة حزينة زعراء مكشوفة العورة، صار منظرها شائها جداً، بدت بقية فروعها كأنها تجمعت وإنزوت، وازدادت ميلاً وتهالكاً على سور الحوش كأنها تُلقى نظرة الوداع الأخير على فلذة كبد الأم المغلوبة على أمرها. لم يستطع أحد من الرجال إخفاء ما ألم به من كدر وحزن على شجرة كانت جميلة فأصبحت كتعاء شوهاء...

منذ ذلك اليوم البعيد لم تكف أمى عن النظر فى الشجرة كلما مرت، تطيل التحديق فيها بكثير من الشعور بالذنب، خاصة أن القاعة التى تزوج فيها أخى حين تم بناؤها بدا كأن الشجرة قد خاصمتها نهائيا فمالت عنها إلى بعيد حرمتها من شبع الظل...

- «بُصّ يا بو عبود! بُصّ فوق دماغك يا شيخ!».

انتزعها الصوت الباكى من جُبّ الصمت فانتفضنا مذعورين. كانت أمى قد تمكنت من النطق أخيراً، فصارت تُشير إلى الشجرة صائحةً صيحتها المفزعة، لدرجة أن أبى توقع ثعباناً سيسقط عليه. وفيما يشبه المعجزة تمكنت أمى من نفض جسدها واقفة دفعة واحدة. اقتربت منا وهى تشير إلى المنشور المريض الشبيه بشكل القلب، الذى كان مايزال ندياً مخضوضراً كأنه منشور منذ دقيقة واحدة..

ربتت أمى على ظهر أبى:

– «احنا قطعنا الفرع ده من إمتى يا بو عبود؟!»

– «فات أكثر من سبع سنين اهه!».

فبهدوء شديد وضعت يدها تحت ذقنه موجهة عينيه إلى الجرح المتخلف عن قطع الفرع:

– «بص يا بو عبود! سبع سنين وأنا باشقَّر على مطرح الجرح ده! واللى باشوفه كل يوم هو هو بس النهارده زايد عن الحد! بص يا بو عِبود! شايف الدموع شكلها إيه؟! شايف الشجرة محروقة من العياط ازاى؟! سَبَع سنين وهى بتسحّ من كل عين حفان!!».

فى البداية نظر لها أبى كمن ينظر لمجنون ينذر بالخطر، لكنه حول بصره إلى مكان الجرح فى الشجرة على سبيل الهزل. كان بصرى قد استقر عليه. لشدة ذهولنا كانت هذه المساحة

المخضوضرة المنشورة على شكل القلب تنزّ بقطرات الماء تنساب خيوطها بغزارة فتسيل على عضلات جذع الشجرة واضح، وقد خلفت خيوط الماء آثاراً ميزت مجاريها عن بقية الجذع..

زحفت يد أبى المعروقة كالأخطبوط نحو الجرح فى الشجرة وهو يرتعش وينتفض، مسح قطرات الماء عنه فابتل كفه ونبتت قطرات غيرها فى الحال. صار أبى يمسح بكفيه فتنشر المياه كشلالات صغيرة صنعت وشيشاً على الأرض. صار يرتعش مردداً بصوت راجف مقهور: لا حول ولاقوة إلا بالله! سبحانك يا رب.

لحظتئذ تهاوت أمى على مكان الجرح فى الشجرة كما ترتمى الثكلى على مقبرة ابنها. بصوت مبحوح مذبوح من فرط البكاء والغُصص راحت تصدر نغمات رفيعة حادة كصوت مواء القطط:

– «حقك علىّ يا اختى! أنا الغلطانه فى حقك! ربى اقطعنى! اعملى معروف قطّعتى قلبى! سايقه عليكى النبى!»..

واحتبس صوتها. وعندما انحنى أبى ليربّت على ظهرها كان الدمع يُغرق وجهه ويديه وشاش أمى وظهرها لا نعرف إن كان دمعهما أم دمع الشجرة، والشمس فى كبد السماء تفرد فوقنا ملاءة فى لون اللهب..

فتح المجاديل

كنا جلوساً على مقاعد خيزرانية متهالكة، وفوق صناديق خشبية واطئة، فى ممر مبلط ببلاطات عريضة عتيقة متآكلة الأطراف، عرضه لا يزيد عن مترين، خلفنا باب حجرة تحتوى على مقبرة أثرية دفنت فيها «خوند» زوج إبراهيم باشا البطل ابن محمد على باشا. أمامنا - لا يفصلنا عنها سوى صف من الأحجار الواقفة - ساحة متربة بلا سقف، تناثرت فوقها ست شواهد مستطيلة بعض الشئ فى أحجام متساوية كست مصاطب عالية مبنية من الإسمنت، لكل منها رقبة تخينة مبرومة برأس مقلوظة، فى صفين متقابلين فى كل صف ثلاثة، وفى المنتصف مصطبة كبيرة بقبتين مستطيلتين أشبه بصوبات الزرع لكل منها رقبة عالية يفصل بينهما مسطح عريض يحلو لنا الجلوس فوقه ساعة الشفق، تنصب على رءوسنا تيارات هواء طرى منعش.

نعرف أن هذه المقابر السبعة تضم رفات رجالات قصر ابراهيم باشا من حاشيته المفضلين لديه. ومن خلفهم - على يسارنا - حجرة قائمة وحدها كالضريح، تحتوى على مقبرة شديدة الأناقة مزخرفة مدندشة بالتزاويق والتعاشيق الصدفية الملونة، تضم رفات أحب جارية لإبراهيم باشا، كانت وصيفة لـ «خوند»، ولكن من الواضح أنها كانت عشيقته المفضلة.

أمامنا منقد فخارى فيه فحم مشتعل، حوله مجموعة كبيرة من حجارة النارجيلة، النارجيله وإسماعيل نعناع ذو الشعر الأبيض المجعد الخشن كفروة الخروف، وجلبابه الأبيض الهفهاف الكاشف عن ساقيه النحيلتين الأسمرين عروقهما نافرة. بكل حيوية ونشاط يتناقض مع سبعين عاما يحملها على كتفيه النحيلين، راح يوالى الرص والتكريس والتوليع وتقديم مبسم النارجيلة لكل منا، مصحوباً بصيحات البهجة والمرح الهازل بصوت عال مجلجل فيه شخر وغنج قدر ما فيه من تسلط وجدية، خاصة حينما يخوض فى حديثه المفضل دائماً: أخبار الشواذ جنسياً، أحدث النكات عنهم، نوادرهم، طباعهم التى تفلق الحجر، شبهاتهم الواضحة على فلان وعلان من شخصيات نعرفهم ونجالسهم، وبعضهم حجاج وناس فى غاية الطيبة.

القعدة حميمة بالنسبة لى، لكننى أمنع نفسى من المجئ إليها كثيرا لأنها تستغرقنى فى هذر سخيف، وأفضل عليها قعدة المقهى فى نهاية هذه العطفة على مبعدة خطوات قليلة من هذا الحوش الأثرى. إلا أننى فى الشهور الأخيرة أصبحت أجىء إليه بشكل يومى، تحت ضغط شديد من صديقى الحميم أحمد حماد بائع السمك فى مزلقان منشية ناصر. وكنت فى الواقع محيراً، فمع أحمد لم يكن يرحب بالمجئ إلى هنا حينما كنت أدعوه فى بعض الأحيان هرباً من ضجيج المقهى، وبضمان من نعناع بأنه

سيغلق الباب علينا من الداخل فلا يتطفل على قعدتنا أحد، وكثيراً ما كان يفعل، لكن الأكثر أن يفلت منه الزمام فيتكأكأ على القعدة صنوف من البشر لا اتساق بينهم على الإطلاق، يغتبط نعناع كثيراً بحضورهم، إذ ينجلي تحت استفزازاتهم المستمرة له، فيشبع هوايته فى الردح بصوت عال، يتضمن ردحه سبابا ينفر منه عم أحمد نفوراً شديداً، إذ أن رذاذ السبِّ سُرعان ما يصيب كل الجالسين كبيراً وصغيراً لا يفرق بين محترم وهُزأة. عم أحمد موته وسمه أن يلحق باحترامه أى خدش ولو غير مقصود. وحينما يشعر أن القعدة بدأت تفقد وقارها فإنه يضع ساقاً على ساق، يصلح وضع العباءة على كتفيه، يعدل العمامة الصغيرة المحندقة، وربما خلع الطاقية الصوف وأعاد لفَّ الشال حولها بإحكام متقن كأنه يحيط نفسه بسياج خفى يقيه سُخف المزاح وطولة اللسان. يرفع ذراعه الطويل، فينزل كمُ جلبابه الواسع عن كُم الفانلة الحابك على المعصم وقد أحاط به سوار الساعة الرادو البارقة ويلمع فى بنصره الفص الفيروزى الأخضر، يطلب من الجميع أن يكفوا عن المسخرة، لكنه يطلب ذلك بصنعة لطافة، يشرع فى حكى حكاية لطيفة لابد أن تجيء على الوجيعة، قد تكون حكاية موقف حدث له أو لأبيه أو لعمه أو لعمر بن الخطاب أو حتى لجحا أو أبى النواس، ولربما تكون محض تأليفٍ من خياله الواسع

الخصيب، لكنها فى النهاية لابد أن تحضّ على الأحترام وإعطاء كل ذى حق حقه. ولأنه خفيف الظل، متكلّم، فى أعماقه كاتب روائى مُحبط لم ينل من التعليم والثقافة أى حظٌ فإنه موهوب فى الحكى قادر على جذبه ولفت انتباهك. إحساسه بالفكاهة والسخرية عال، مما عوّد الجميع على أخذ كلامه على محمل السخرية والتنكيت دائماً بدرجة يضيع فيها المغزى الأخلاقى الذى هدف إليه. وهو بوضعه هذا مؤهّل لتلقى السخرية من طويل اللسان لكنه لا يتلقاها نظراً لشدة احترامه لنفسه ولطيبة قلبه، فيما عدا بعض المسنين الذين ينادونه فى الطيبة، إذ يناديه بعضهم بأحمد سمكة. وأقصى مزاح مورس معه مزاح الحاج أنور حسنين تاجر الخردة -البالغ من العمر تسعين عاما - إذ يسلط فيه عينيه بحركة صبيانية شقية خفيفة الظل لبرهة طويلة تثير انتباه الجميع، يختمها بقوله: «إزيك ياد يا حرامى!» فيرد صديقى بكلمة واحدة بلهجته الصعيدية العتيقة: «حراميشى»، وأحياناً: «بس يا ولد!» كأنه يداعب بالفعل طفلاً عزيزاً، لثقته وثقة الجميع أنه فى مسائل الذمة والضمير والتقوى والصلاح يُعتبر عملة نادرة، ولا أحد فى المنطقة كلها يطاول قامته فى هذه الصفات لا ينقصه من صفات المسلم الكامل إلا الحجَّ إلى بيت الله الحرام وتلك عطية - فى نظره - يمنحها الله بأوان، ولابد أن أوانها قادم بإذن الله ولكن، لو كان الله يحبه

حقا لعَجّل بمجيئها قبل أن يتكل هو على الله ويموت..

انتبهت فجأة على صوت عم أحمد يردد هذه العبارة تعليقاً على حوار كان يدور منذ هنيهة بينه وبين نعناع، حول أمر فاتنى الإنتباه إليه، فما أكثر ما يفوتنى من حديث جانبى كلما جلست هذه الجلسة فى هذا المكان المفعم بمشاعر روحية موحية سرعان ما تستغرقنى بمجرد الجلوس، سيّما فى وقت الشفق هذا، حيث تنتصب فى ناظرى مئذنة مسجد قايتباى الشامخة الباسقة تخترق قلب قرص الشمس الأحمر كطرف سكين ينغرز فى برتقالة. لكن كلمة الموت تكررت فشدتنى من عنق القلب. سرعان ما تبين لى أن نعناع كان يمتدح عم أحمد -- الذى كثيرا ما أرانى متوحداً به - ويتمنى له نوال الحجّ قبل أن يموت..رغم تأييدى لنعناع فيما ذهب إليه، فإننى شعرت فى لهجته بكثير من الملق الذى يجيد نعناع توظيفه كلما أراد مصلحة شخصية من أحد. فنعناع ليس طُربياً فحسب، إنما هو إلى ذلك صاحب صنعة دقيقة له فيها باع طويل وخبرة عميقة: تطريز الثياب، بالقصب أو بالخرز والترتر أو بشتى أنواع الكَلَف. لديه مشغل يحتل إحدى حجرات هذا الحوش بجوار مدفن خوند، فيه أربع ماكينات ماركة سينجر بدواسات، وبعض ولدان يشتغلون عليها، وأحيانا يقوم هو بنفسه باعتلائها كانشط منهم إذا تمرد الولدان الصنايعية أو تملعنوا بهدف زيادة الأجر. يقوم بالطريحة وحده

فيما يجلس حوله بعض الأصدقاء يناولونه مبسم النارجيلة الذى لا يحب أن يفارقه أبداً. ينزل إلى وسط المدينة فيسلم الطريحة لأصحابها، محلات خان الخليلى، محلات الكرداسة، والغورية، وكل المحلات التى تستكرد السياح فتبيع لهم العباءات الحريمى والرجالى المشغولة بالقصب والكُلَف. هو إلى ذلك حالانجى كبير، واسع العلاقات، يعرف الكثيرين من رجالات المجتمع الذين لهم مقابر تحت إشرافه وحراسته، وموظفين كبار من وزارة الأوقاف التى تمتلك هى الأخرى مقابر تحت هيمنته ومن بينها هذا الحوش الذى نجلس فيه، أيضا هو على علاقة متينة دائمة بإدارة الجبانات والطب الشرعى. يعرف جميع ممثلى ومخرجى ومنتجى السينما بجميع أجيالهم، يفتح لهم هذا الحوش كل بضعة أيام لتصوير المشاهد. سيرة الممثلين والمخرجين والمنتجين مطروحة أمامنا على الدوام، ما دفعوه من إكراميات، ما أنفقوه فى وجبة الغداء، كيف توسط هو للكثير من أهل الحى كى يظهروا فى بعض المشاهد، كيف أتاح لأم حسن جارته فرصة كبيرة لبيع الشاى والقهوة للممثلين الذين يمكثون فى التصوير بضعة أيام قد تمتد أحياناً إلى أسبوع. يبدو أنه لشدة علاقته بالممثلين قد أصابته عدوى التمثيل فأصبح يتمسرح فى كل كلامه وحركاته وإيماءاته، لا سيما إن كان نصر العبيط حاضراً. نصر العبيط فى حوالى الثلاثين من العمر لكن

عقله توقف نموه عند الثالثة أو الخامسة من العمر إلا أنه بارع في التقليد، تحتفظ ذاكرته بعدد من مفردات السب البذيئة، يروح يصبها على نعناع، فهو الذي أطلق عليه هذا الاسم حينما عجز عن نطق اسمه الحقيقي. ونعناع يبادله السب بصوت عالٍ في مشهد مسرحي فاتن. ذلك أن نصر العبيط لا يعرف الفرق بين الشتيمة والاعتذار. فقد يدفع عن نفسه عدوان نعناع المفاجئ باسترحام هو في الحقيقة شتم بذئ؛ فتتصادم المفارقات الجنونية في سياق عبثي لا ينتهي، ينفعل نصر العبيط إذ يضربه نعناع بقسوة، يخلع ثيابه كلها، يمسك بآلة حادة. يقف إلى بعيد يصب السباب بأعلى صوت وحرارة، طالبا من نعناع أن يجئ إليه لو كان رجلاً. فما أن يصل إليه نعناع حتى ينطلق جرياً يلوذ بأحد المارة أو بالفرار. فإن أمسكه نعناع راح يستحلفه أن يعفو عنه: «ورب النبي! معلش! ورب النبي!». فما أن يتركه نعناع ويمضي خطوة حتى يصيح في أعقابه: «عنديك أمك! أم نعنا..ا..ا..ع....ت ت ت ت تعالى هنا إن كنت راجل». وهكذا وهكذا، حتى يشعر بالتعب فيعود يتقرفص بجوار نعناع كأن شيئا لم يكن، أو يحمل صرة هدومه الخلقة ويمضي إلى المقهى، ليعيد نفس المشهد مع آخرين..

رنت في أذني كلمة الموت مرة أخرى، فأزعجتني. تذكّرتُ في الحال أن صديقي عم أحمد حماد كان طوال الشهور الأخيرة

منشغلاً بمسألة الموت. فرغم أنه لم يكمل الستين من عمره بعد، ولايزال بصحة جيدة، يصحو كل يوم عقب صلاة الفجر مباشرة، يحمل الجنْبات مع ولده ليقف بها فى انتظار عربة أجرة تقبل توصيله من المقطم إلى سوق غمرة، ليحضر المزاد، فيتسوق شروات السمك الطازج الحى بشطارة وحلاوة لسان وحسن معاملة: ثلاثمائة كيلو، خمسمائه لو احلو المزاد، بلطى وقراميط ومكرونة وسردين، فى عربة نقل سيزوكى يحمل كل ذلك عائداً إلى سوق مزلقان منشية ناصر، ليجد الزبائن فى انتظاره من صبحية ربنا، يقضى رابعة النهار فى مناهدة ووجع قلب مع الزبائن الذين يحبهم ويتمنى لو استجاب لفصالهم لولا أن مكسبه قليل جدا من الأصل، ولابد له أن يلم «بتاع الناس» ليسلمه غداً إذ هو يدفع ثمن ما تسوقه بالأمس قبل أن يدخل فى أى مزاد، بعد صلاة العصر يعبئ الفلوس فى قرطاس، يعود بها إلى منزله الذى اشتراه مؤخراً فى حارة العجوز بعد تلطيم فى الأحواش فى العراء سنوات طويلة بأولاده الكثار، يترك بقايا السمكات لابنه يتسلى ببيعها، يخلع ثياب السوق يستحم بالماء الساخن والصابون، يتغدى، يتمدد على السرير ساعة أو بعض ساعة، يصحو فيتوضأ ويصلى العصر، يلبس الجلباب الصوف فوق جلباب من البوبلين، يتعمم، يطرح العباءة على كتفيه، ومن فوقها كوفيه من الكشمير، وفى قدميه جورب وحذاء لمّيع، وفى

يده المسبحة، وينطلق إلى المقهى فيجدني في انتظاره حيث نشرب الحجرين لزوم الترويق في استقبال المساء كما يقول دائما، يستدرجني حتى أقرأ عليه صفحات من الكتاب الذي أدركني وأنا أقرأ فيه، أو بعض فقرات مما أكتبه، وسواء كان الكتاب في الفلسفة أو في التصوف أو في الأدب فإن لديه قدرة مذهلة على الاستيعاب رغم صعوبة الأساليب، بحيث يعيد عليّ ما فهمه مما سمع فإذا هو قد استوعب خمسين في المائة مما ظننت أنه لن يفهمه، الطريف أن ما يفهمه - حينما يعيده عليّ - يتحول إلى شيء أشبه بالفولكلور أو المعتقدات الشعبية..

رغم كل تلك الحيوية فإنه في الشهور الأخيرة قد بدأ ينشغل بمسألة الموت، إذ يرى نفسه في الأحلام في مواقف غريبة معظمها لقاءات مع الموتى من أقاربه. وذلك في نظره إشارة إلى قرب دنو الأجل: «خلاص يا أستاذ يلاً حُسن الختام! أحلامي ما تنزلش الأرض أبداً!!». ومعنى ذلك أن عليه من الآن أن يفكر في الدار الآخرة، لقد وفقه الله أخيراً في إتمام البيت الذي يسكنه من بعده أولاده، إطمأن إلى أن البلدوزر لن يكسحهم في طريقه كما حدث لهم عشرات المرات.. بقي الآن أن يطمئن على البيت الآخر، الدائم، الذي سينام فيه نومته الأبدية. صحيح أن لهم في بلدة الغنايم في الصعيد الأسيوطي مقبرة عائلية كبيرة، ولكن أين هو منها الآن؟ هل ينتظر جثمانه حتى يتم نقله إلي الصعيد

فى بهدلة ومسخرة؟ ثم إنه أصبح الآن قاهرياً ويجب أن يُدفَن حيث يقيم أولاده ليتمكنوا من زيارته باستمرار..

كنت أظنها مجرد هواجس عابرة، لكننى فوجئت به ذات يوم يقول:

- «بارك لى يا أستاذ!»

- «خير يا عم أحمد؟»

ذلك أن السنوات الخمس التى سبقنى بها فى الميلاد كفيلة وحدها بأ تجعلنى أقول له يا عم، سيمّا وأنه لم يذكر اسمى مجردا على الإطلاق، بل لعله لم يذكره أصلاً، فأنا على لسانه: الأستاذ، والأستاذ فحسب. فرغم العلاقة الحميمة بيننا، لدرجة التوحد الكامل فى الطبع والنفسية والخيال والاتصالات الخفية التى تحدث بيننا عن بُعد، كان يتذكرنى فجأة فيرانى، أو أتذكره فجأة فأراه، فإذا تأخرت عن موعدى اليومى فإنه يرانى وهو يختم الصلاة فى مسجد قايتباى فى مواجهة العديد من الكشافات المبهرة فحين أحضر يتضح له أننى لحظت ذاك كنت أصور حديثا للتليفزيون.. إلخ. رغم ذلك فعلاقتنا قائمة على التوقير والاحترام المتبادل كأن كلاً منا يتعامل مع نفسه..

قال: - «اليوم دفعت عربوناً لقطعة أرض فى القطامية!».

- «مبروك! ربنا يعطيك العمر حتى تبنيها عمارة كبيرة!»

- سأبنيها حوشاً! مقبرة! الحكومة قسمت هناك أرضاً

كبيرة للمقابر بأسعار معقولة! لماذا لا تحجز لك قطعة يا أستاذ؟ احجزلك قطعة لأن الاقبال عليها كبير! أسلفك أى مبلغ تحتاجه للعربون!» .

– عليّ أولاً أن أوفّق فى احتجاز شقة للأولاد! فشقتى كما تعلم آيلة للسقوط!»

– «هذه بلد لعينة والله يا أستاذ رجل فاضل مثلك يعدى الخمسين من عمره ولم يجد شقة يسكنها؟! إنه كفر والعياذ بالله! على كل حال فالمقبرة الآن أسهل وأوجب! الواحد منا ما دام قد عدى الخمسين ولم يجد شقة للسكن فالأفضل أن يشرع فى البحث عن مقبرة! ولو أن المقبرة الآن.. اسكت يا أستاذ!.. اسكت! حسبت التكاليف وجدتها تتعدى العشرين ألفا بعد البناء والترخيص!!»..

مكثنا بعد ذلك أسابيع طويلة لا حديث لنا فيه إلا حديث أرض القطامية ومشاكلها: فالمصيبة أن الولد المهندس المختص فى إدارة الجبانات يسكن بجواره فى حارة العجوز، وهو ولد والعياذ بالله طويل اليد يأكلها والعة، لا يرد عليك السلام إلابالفلوس، وإلا فمن أين يركب السيارة (البيچو ٥٠٤) وهو فى الأصل كحيان ابن كحيان لا هو مهندس ولا حاجة كل ما هنالك أنه يحمل دبلوم الصنايع ويطلق على نفسه لقب المهندس ظلماً وعدواناً، يطيح فى أصحاب المقابر والطربية لا يعطى أى

تصريح من أى نوع إلا برشوة كبيرة باعتباره الموظف المختص بتخليص أوراق الأوامر والقرارات بعد أن يقوم بالمعاينة، فهو لذلك بارع في اختلاق المعاذير والتأجيل حتى يفهم صاحب الحاجة فيشغل مخه يتلحلح. كان عم احمد يظنه سيراعى الجيرة لكن اتضح أن الخسيس خسيس، وذيل الكلب لا ينعدل حتى لو علقوا فيه قالب طوب. وعم احمد سخى وكريم ومفتّح، كان من نفسه يدبر له هدية كبيرة ثمينة لهذا الولد الملعون بشرط أن يقدمها فى الوقت المناسب حتى لا تكون فى المقابل صراحة، إلا أن الكلب كلب يشمشم على قطعة العظم العاجلة بدلاً من خروف آجل. المهم أن أوراق عم احمد بقيت فى درج المكتب أسابيع طويلة منتظرا أن يعرض عليه عم احمد الرشوة، عم احمد متحرج خائف يكتفى بالتلميح الواضح. غير أن الولد الكلب - كما حدس عم احمد - يعرف أن لعم احمد صديقاً صحفياً، فى نفس الوقت يعرف أن عم احمد يعرف أنه مرتشٍ واسع الذمة فائح الرائحة، فما صدق أن جاءته مصلحة لعم احمد فانتهز الفرصة ليثبت له كجار مهم أنه ولد نظيف شريف لا يقبل الرشوة ولا يوالس على شغله. وهكذا راح يغلى فى الأوراق حتى عثر على عقبة تافهة فأوقف الطلب من أجل استيفاء هذه النقطة التى تكلف الكثير من الجهد والوقت والمال، حتى فوّت على عم احمد فرصة وضع اليد على القطعة فضاعت

منه كما ضاعت كل مصاريفه فى الفاشوش..

عادت كلمة الموت تدق قلبى من جديد بإلحاح. اعتدلت فى جلستى مائلا نحو عم احمد ونعناع، لأعرف سر هذا الولد الحميم المفاجئ، وسر هذا الأدب الجم الغريب الذى يتكلم به نعناع مع عم احمد على غير العادة. اعتدل عم احمد بدوره فواجهنى:

- «ناخد رأى الأستاذ!»

- «طبعا لابد من رأيه! كل شئ سيتم بشهادته!»

هكذا قال نعناع، ثم ترك الماشة والحجر وقد تلبسته حالة من الوقار المفاجئ غير متسق مع شخصيته الهازلة أبدا. ثم أشار إلى الشواهد السبعة القائمة أمامنا فى الساحة المتربة، وشرع يتكلم، لكن عم احمد قاطعه:

- «باقول لك ايه يا استاذ! نعناع يبيعنى طربة من هذه الطرب!!»

ثم نهض واقفاً، اتجه إلى الشاهد القريب منه مباشرة وهو أول مصطبة على اليمين، وضع يده عليها صار يتحسس الرقبة الإسمنتية الغليظة فى حنو بالغ كأنها رأس طفل وليد، قال: هذه يا استاذ. قالها بفخر وتمن، بلهجة طفل فقير حاف القدمين ينتقى بذلة فاخرة فى فترينة البائع وهو يعلم مقدماً أن البائع سيسخر منه لا محالة. راح يلف ويدور حولها متفحصاً وقد

اعترته ثقة ولمع فى عينيه حب للمغامرة والمخاطرة. قلت:

- «ولكن هل هذا ممكن يا نعناع؟!».

انجعص في قعدته:

- «ممكن ونصف! ليست هذه أول طربة أبيعها!»..

- «هل بعت من هذه الطرب؟!»

- «ثلاثة! أنظر تجد أسماء أصحابها مكتوبة عليها!»..

- «شئ عجيب يا نعناع! ورجال حاشية إبراهيم باشا المدفونين فيها؟! كبار رجال دولته؟!»..

ضحك ضحكته الصاعقة الهازئة التى تنتهى دائما بشخرة مكتومة. شوّح فى سوقية:

- كانوا خصياناً! وتحولوا إلى تراب! المقبرة من هذه المقابر لم تفتح منذ مئات السنين! نفتحها إذن لتنفتح أبواب الرزق! ننتفع بها! هى الآن جاهزة مماجميعه! أسبوع كامل وأنا أشتغل فى تنظيفها! إنها من الداخل حجرة مبنية واخر أبهة! القعدة فيها مملكة! سبحان الله فسقية تحت الأرض تجلس فيها كأنك جالس فى بلكونة مسجد السلطان قايتباى البحرية! ما رأيكم لو نزلناها الآن فأكملنا قعدة العصرية فيها؟! جربوا فلن تخسروا شيئا!!»..

لم ينتظر ردنا، بل قام حاملاً النارجيلة الصغيرة بيد، ومنقد النار باليد الأخرى، وطرف ذيل جلبابه موضوع بين أسنانه.

مضى نحو الشاهد، فإذا بالمجاديل - الغطاء الحجرى للفسقية- كانت مرفوعة. وضع قدمه فى فتحة دائرية كفتحة البالوعة،بدربة راح يغوص بداخلها شيئاً فشيئا حتى اختفى رأسه ثم اختفى ذراعه بالنارجيلة. بعد برهة جاءنا صوته يرن فى العمق السحيق منادياً فى مزاحه المعتاد:

- «هات الحجارة يا بو صابر وتعال أنت والأستاذ!»..

اقشعر بدنى، رميت بصرى، رأيت عم أحمد يرتجف ولكن فى جذل طفل أغراه الرفاق بالنزول إلى البحر فى مغامرة محبوبة رغم مخاطرها. أقبل نحوى كأنه يعتذر عن اضطراره لتلبية نداء نعناع وفى نفس الوقت يغرينى بمشاركته فى المغامرة الطريفة، قال فى تردد واهن:

- «تعال يا ابا نشوف الراجل المهفوف ده حيعمل كيف؟!

حاكم نعناع ده ملعوب فى أساسه !!»..

جمع الحجارة بالفعل وكل ماتحتاجه الجلسه ومضى مشمراً ذيل جلبابه الصوفى الثمين رأيتنى أنهض فأسير خلفه دون أدنى مقاومة..

على حافة الفتحة وقف عم احمد يرتعش متردداً يطلق الضحكات الجذلة:

- « ما رأيك يا أستاذ؟ نعملها ونبقى مجانين مثله؟

هيه! توكل على الله! إيه يعنى؟ نبشر على أنفسنا

بالموت؟ نحن ميتون ميتون فما الداعى للخوف؟!»..

شجاعة مفاجئة اعترتنى حين رأيت سلماً حجرياً أنيقاً محندق الدرج يبدأ من الحافة التى ترتكن عليها المجاذيل حتى أرض الفسقية فى خط مائل شبه حلزونى. شرعت في النزول فكاد قلبى يتوقف عن الدق بل لعله توقف بالفعل لجزء يسير من الثانية. شعرت أننى أسترده متنفساً بعمق فيما تصافح قدمى الدرجة التالية، ثم شعرت به يقوى مع النزول حينما لاح لى نعناع متربعاً على كليم رخيص مفروش فوق الأرض مما يؤكد أنه جلس فيها من قبل مرات، وعدة الشاى متناثرة أمامه مع وابور السبرتو.. تربعت بجواره مرتعشاً وشبح عم احمد يشيع الظلمة فجأة أثناء هبوطه وقدومه، ثم عاد الضوء بعد أن تربع بجوارى ناظراً لى فى غبطة كأنه يقول: «إيه رأيك بقى فى المغامرة اللطيفة دى؟!». أشعل نعناع وابور السبرتو، وضع فوقه براد الشاى. كان الهواء العليل الزكى الرائحة يهب على شعلة الوابور فيطوحها بشدة، ويلفح وجوهنا برفق ومودة وحنو، حتى شعرت برغبة مفاجئة فى النوم بعمق، فإذا بى أتمدد قائلاً: دستوركم، وإذا عم احمد يطبطب بيده على ركبته إشارة لى بأن أتخذ منها وسادة. فعلت.. صرت كلما جاءنى مبسم النارجلية أفتح عينى بصعوبة أبذل جهداً لأرفع رأسى مرتكزاً بكوعى على الأرض كى أتمكن من شدّ الأنفاس.. ثم صار الكلام وصوت

كركرة النارجيلة يبتعد عن أذني شيئا فشيئا حتى اختفى تماما، شملتني حالة من الصفاء الشديد العميق فلست بالمستيقظ ولست بالنائم لكن صلتي مقطوعة بكل شيء حولي مع أنني أتذكر إلحاحاً شديدا يحملني على مسك مبسم النارجيلة، أتذكر يداً كيدي تمسكه بالفعل، ،فماً كفمي يطبق عليه يشد الأنفاس، كما أتذكر أن نفس اليد امتدت لتمسك بكوبة الشاي مرات عديدة، ونفس الفم يرشف منها، وصوت كصوت عم احمد ينبهني إلى أن أحذر سخونة الكوب فلا أحذر إذ لا أشعر بسخونة شيء. ثم إذا بيد خشنة قوية تطبق على يدي الاثنتين، وثمة قوة عاتية تشدني دفعة واحدة واقفاً علي قدمي كأنها انتزعت جذوري من باطن الأرض، لأجد الظلام من حولي وفوقي كثيفاً، يلمع في جوفه بصيص ضوء منبعث من جمرات النار الواهنة في الموقد، ونعناع وعم احمد كل منهما ممسك بشيئ من معدات القعدة، وإحدى يديّ لاتزال في قبضة يد نعناع تسحبني برفق فأمضي معها كالمنوم مغناطيسيا، ثم أصعد خلفه درجة فدرجة. لتصافح وجوهنا ملاءة ضوء كهربي شاحب ينبعث من لمبة صغيرة متدلية من حائط حجرة دفن الوصيفة تفرش الساحة الترابية بضوء ليموني، والمصاطب السبع بشواهدها تفرش ظلالها الممطوطة على الأرض تتمازج ظلال رءوسها في بعضها البعض مكونة أشكالاً خرافية، والكون كله تشمله حالة

سكون مطبق، فكأننا منشورين لتونا، كأننا أول مخلوقات يتم بعثها من جديد بعد موتٍ دام ملايين السنين لدرجة أننى وعم احمد صرنا نتحسس خطواتنا على نفس الأرض التى طالما دهسناها فى أنصاف الليالى. مكثنا واقفين لبرهة طويلة كالغرباء لا نعرف لنا وجهةً ولا هدفاً..

لم يعدنا إلى الواقع الذى كنا نعرفه سوى ضحكات نعناع الصاعقة التى تنتهى دائما بشخر وغنج مكتوم. قال:

- «أجيب لكم مصوراتى؟!».

فضحكنا. دبت فينا الحياة لأول مرة فيما نتخذ جلستنا السابقة على الكراسى المتهالكة. وحينما تحسست يد عم احمد قرص الكرسى بحثاً عن رءوس المسامير الناتئة التى قد تنغرز فى الثوب فتمزقه، أدركت أننا قد استأنفنا الحياة بالفعل وبدأ اتصالنا الحقيقى بالواقع، فقمت واقفا وتحسست أنا الآخر رءوس المسامير التى طالما سببت لى المكننة وانحراف المزاج..

كان نعناع مصراً على إنهاء الصفقة فى نفس الليلة، فبدأ يعد لشاى جديد، ويغير ماء النارجيلة، ويحيى النار في المنقد. وضح أن عم احمد يشاركه نفس الرغبة، فلم يعترض، بل قام عابراً صف الأحجار إلى الساحة الترابية وانتصب واقفاً بين مصطبتين، فخلع الكوفية الكشمير عن كتفيه، فرشها على

الأرض، أقام صلاة العشاء على مهل..

قلنا: حَرَماً.

قال: جمعاً إن شاء الله.

قال نعناع: «ما رأيك يا عم فى هذه النومة؟!»

رد عم احمد: «مثل العسل! آخر مملكة!»

قلت كأننى أدخر الورقة التى ستثبت فشل هذه الصفقة من أساسها:

- «ولكن هل يحق لك أن تبيع ما ليس ملكك يا نعناع؟!

هذه المقابر ملك لوزارة الأوقاف! وما تملكه وزارة الأوقاف لا يباع أصلاً!»

قال كأنه كان فى انتظار هذا القول:

- «أنت لا تشتريها لتكون ملكك عدم المؤاخذة!

أنت تشترى حق الإنتفاع بها! فهات محاميك وتعال نكتب العقد بذلك!»

- «ومن يضمن لنا أن وزارة الأوقاف توافق على شئ كهذا؟! هل هو عمل مشروع قانوناً؟!»

- «فما صنعتى إذن؟! هذه مهمتى ومسئوليتى! لك أن تتسلم منى رخصة باسمك بمقتضاهاتصبح هذه المقبرة خاصة بك أنت وأسرتك! ولا شأن لك بما سأفعله أنا فى الوزارة أو إدارة الجبّانات! فهذه شغلتى!»

- «فما المطلوب الآن؟»

- «نكتب العقد مثلما فعلت مع غيرك! عند توقيع العقد تدفع ثلثى المبلغ المطلوب ويبقى الثلث لحين تسليمك الرخصة! محاميك طبعا سيكون الحاج محسن عوف وهو رجل مؤمن لا يقبل الغش اسأله! فهو الذى كتب عقود هذه المقابر الثلاثة المباعة لغيرك!»

- «بقى أن نعرف قيمة المبلغ الذى تطلبه!»

هكذا صاح عم احمد. فقال نعناع:

- «بعت بألفين ونصف! ولأجل خاطر عيون عم أحمد والاستاذ أبيع بألفين وثلاثمائة!»

بدأت المساومة من جانب عم احمد. من هنا لهناك رضى عم احمد أن يدفع ألفا وثمانمائة جنيه، على أن يدفع الثمانمائة عند توقيع العقد، والألف يدفعه عند استلام الرخصة. أصر نعناع على أن يكون المبلغ الباقى خمسمائة فقط، وثبت على موقفه فانفض المجلس على ذلك..

مضى حوالى أسبوع، تلاقينا خلاله كثيرا فى المقهى دون أن نفتح الكلام فى هذا الموضوع، مما جعل عم احمد يثق فى جدية الصفقة. ثم إنه سأل الحاج محسن عوف المحامى عن حقيقة الأمر فأفهمه أنه جائز ومشروع، على أساس أن المقابر قد أصبحت خالية ولا ضير على الوزارة أن ينتفع بها الناس فى

دفن موتاهم طالما أن الملكية تبقى فى النهاية لوزارة الأوقاف، خاصة أن مبدأ الصدقة فى الدفن معمول به. وهكذا تسمرت الفكرة تماما فى رأس عم احمد. وفى قعدة أخرى ضمت الحاج محسن عوف المحامى تمت كتابة العقد، ودفع عم احمد المبلغ المطلوب. وبعد أقل من شهر كان نعناع قد نشط فى استصدار الرخصة باسم عم احمد فسلمها له وتقاضى بقية حسابه..

أول شيء فعله عم احمد هو إعداد قطعة الرخام المربعة أعدها نعناع أيضا بمعرفته من أجود أصناف الرخام، كتب عليها بالحفر:

هذا مدفن احمد محمد حماد وعائلته. وتم لصقها على واجهة المصطبة تحت الشاهد، فكانت جميلة الشكل فعلاً..

دخل حياتنا إدمان جديد لا سبيل إلى مقاومته: متعة الجلوس أمام هذه الرخامة، وقراءة اسم عم احمد بالخط الرقعة الكبير الجميل محفوراً ومشبعاً بالحبر الأسود. بهذه الرخامة وحدها دخل عم احمد في زمرة العظماء الذين نقرأ أسماءهم على واجهات الكثير من مقابر المنطقة. وكان يروق لى أن أتابع جلسة عم احمد وهو يتأمل فى الرخامة بنظرة تبدو شاردة، ثم ينجعص واضعاً ساقاً على ساق قائلاً: «أمال يا أبا». حينئذ يحلو لنعناع أن يفرغ ماء النارجيلة المصنن برائحة التبغ المحترق يرشه أمام المصطبة. فيقول عم احمد:

- «وماله! وصيتك أن ترش فوق رأسى ماءً كثيرا نظيفا! روحى فى المياه خل بالك!»..

يقول نعناع وهو يغير ماء النارجيلة فيسرف فى دلق المياه على الأرض:

- «بعد عمر طويل إن شاء الله! يا ترى مين يعيش! مت أنت ولك علىّ أن أفتح الخرطوم على رأسك طول النهار صيفاً وشتاءً

يشد عم احمد أنفاس النارجيلة فى سأم متلفتاً نحوى:

- «أستاذ! أوصيك أن تأتى بشلة أصدقائك كلهم وتسهروا هنا كل ليلة بجوارى حين أموت! أنت تعرف أنى أحب الوَنَس!»..

- «اطمئن يا سمكه! سنسطلك كل ليلة!»

هكذا يقول نعناع. وأقول:

- «ربما أموت أنا قبلك يا عم احمد!»..

- «إسمع يا أستاذ! لماذا لا ندفن معاً هنا؟ ما الذى يضطرك للسفر إلى البلد لتُدفن هناك؟ هل تجد نومةً أحلى من هذه؟ أنت جربت بنفسك!»..

أعجبتنى الفكرة فعلاً، بل استقرت فى رأسى، سيما وأنا مقتنع بأن هذا الحوش بالذات لابد أن ينجو من الهدم بحكم تبعيته لوزارة الأوقاف من ناحية وكونه أثراً من الآثار من ناحية أخرى. وجدتنى أهتم اهتماماً كبيرا بهذا الأمر، فنقلت الفكرة

لأولادى نبهت عليهم أن يدفنونى - بعد عمر طويل - بجوار عم احمد. كذلك نبه عم احمد على أولاده بنفس الوصية..

على أن عم احمد بدأت تنتابه حالات غريبة تكاد تصل إلى حد الهوس بحالة توقع الموت، وبهذه المقبرة بالذات. لا يمر يوم إلا ويحكى لى حلماً رآه فى نومة العصر أو نومة الفجر أو نومة الهزيع الأول، فلكل وقت من هذه الأوقات دلالته فى الحلم، فحلم الفجر وحلم العصر لهما فى نفسه أشد الوقع وأبلغ الأثر. ولقد تداخلت الأحلام واختلطت فى رأسى فلم أعد أمّيز إن كان هذا الحادث أو ذلك وقع فى الحلم أو ذاك، لكننا استرحنا معاً لتفسير تقريبى واحد لها جميعا، هو إن أحقية عم احمد فى هذه المقبرة مشفوعة بقدر إلاهى وإرادة سماوية اختارتها له، واختارته لها. ومن ثم فإن أية مشكلة لن تحدث إذا ما استيقظ ذات صباح فوجد نفسه ميتاً وذهب أولاده ليدفنوه، لن يتضح فى هذه اللحظة الحرجة أنه جاء يغتصب حق أحد أو يفرض نفسه على أحد، لن يتضح أن نعناع قد نصب عليه وباعه الترماى.

إلا أن أهم ظاهرة لفتت أنظار الجميع هى أن عم احمد بدأت تظهر عليه أعراض التأليف. فقد فوجئت به ذات عصرية يقبل فى موعده حاملاً كراسة مطوية فى جيب الصديرى. وكانت ملامح وجهه منبسطة فى غبطة كبيرة كأنه كسب البريمو فى لعبة اليانصيب. ما أن جلس حتى مال نحوى قائلاً:

- «باقول لك ايه يا استاذ! إمبارح كتبت شوية كلام من اللى قلبك يحبهم! يتهيأ لى إنها تنفع قصة قصيرة!»..

قدم لى الكراسة.بشغف هائل فتحتها، فإذا بى أمام صفحة مكتوبة بالقلم الرصاص لا يمكن قراءتها بأى حال من الأحوال، كأنها لغة تركية أو عبرية مكتوبة بحروف عربية. لاحظ هو أننى متعثر فى قراءتها، سحب منى الكراسة:

- «أقرأها لك!»

صار يقرأ، عبارات باللغة العربية الفصحى، لا تقل جمالاً وسلاسة عن أى أسلوب لأى كاتب من أصحاب الأساليب الأدبية الجزلة، بل لعلها تمتاز بمفردات حية عبقرية النغم والثراء تدهش كيف عثر عليها وأين قرأها. إلا أنها محض جمل تدفقت بها قريحته المرسلة عفو الخاطر لحظة وهج وتجل، غير محكومة بقواعد نحوية أو صرفية، غير مربوطة بسياق عام، لكنك تفهم عنها افتتاناً بالصدفة المخلصة، وعظمة الكفاح فى الحياة بشرف، وأكل اللقمة بعرق الجبين، وفى الكلام ثمة ضمير لمتكلم يشكر الله على فضله ومننه، ويشيد بدعاء الوالدين فلما أعدت محاولة القراءة تبين لى أنه كتب المفردات الفصيحة بنطقها العامى، كتب النطق نفسه..

أبديت فرحتى وحماستى كرد فعل مباشر لفرحته وحماسته حيث راح يردد:

- «سهرت فيها الليل بطوله كادت تمنعنى اليوم من مرواح السوق! آه يا أستاذ لو كنت تعلمت!

الوليه امرأتى سخرت منى فكسرت مجاديفي ولولاها لكتبت هذا الدفتر كله! قالت لى: الأستاذ قلب مخك يا راجل قم نم لتشوف شغلك!!»..

بعدها بأيام قليلة جاءنى بقصيدة من شعر العامية، حدّست أن يكون فؤاد حداد قد هزّه فدفعه إلى تقليده. ذلك أننى كنت دائماً أقرأ عليه دواوين فؤاد حداد، لأستمتع بردود الفعل العنيفة التى يتركها هذا الشاعر الفذ على مستمع كعم احمد. كان التأثير أحياناً إلى حد أن يرتعش عم أحمد ينتفض كالمصاب بالحمى يطلق يصل صيحات الوجد من أعمق أعماق قلبه لدى عبارة من عبارات ابن حداد أو صورة من صوره. فلما استمعت إلى قصيدة عم احمد وجدتها - لدهشتى - موزونة ومسبوكة الصياغة متسقة. بصمات فؤاد حداد ومفرداته واضحة فيه بطبيعة الحال، لكنها مطعمة بمفردات فولكلورية عتيقة وغنية. القصيدة كانت مدحاً فى صداقتى وصداقة رهط من أصدقائى الأدباء والشعراء الذين عرّفته عليهم. كان لإعجابى وإعجاب الأصدقاء بهذه القطعة فعل السحر فى عم احمد، فبات يكررالمحاولة، أصبح يسمعنى كل بضعة أيام قصيدة جديدة. إلا أن شيئاً ما فى إعجابنا لم يكن مقنعاً لعم احمد بأننا معجبين

بالفعل. ولابد أنه كان يستشعر - بشفافيته المعهودة - أننا نجامله محض مجاملة، وأنه - بعدُ - ليس جديراً بالإعجاب الحقيقي الصافي. لعله كان يتوقع أن يبادر أحدنا فور الاستماع إلى القصيدة بأخذها لنشرها أو إذاعتها..

لم نعرف إن كان هذا هو السر أم أنه الانشغال بزحمة الهموم المعيشية - فى نسيانه أمر التأليف، إذ مضى وقت طويل لم يحدثنى فيه عن محاولات شعرية..

لكنه كان قد بدأ يحدثنى عن همّ جديد شديد الغرابة كاد يعصف برأسى. والحق أننى ألححت عليه كى يتكلم، فقد لاحظت لأيام طويلة أنه مهموم مغموم مكسور القلب يفقد الكثير جداً من مرحه المعتاد وبشاشة وجهه الدائمة، حتى ظننت أنه يتعرض لكوارث ضخمة يتحرج من ذكرها، فكان لابد أن أستدرجه للحديث عما يكربه. فإذا هو يقول:

- «صراحة يا أستاذ قلبى مهموم وكربان قوى من ناحية الطربة اللى اشتريناها!!»

- «لقد اتفقنا على أنها بركة ورثك! هدية جاءتك من السماء!»

فبعد تردد قليل، وبلهجة تنضح مسكنة ورهبة وتوجسا استدرك:

- «قلبى يا أستاذ هو السبب! أصبح يحدثنى فينفض جسدى

نفضاً كما يحدث الآن! حتى انظر!!»

فوجئت بأطرافه ترتجف، وثمة شحوب يعلو وجهه. سألته مازحاً:

- «وبماذا يحدثك قلبك يا ترى؟!»..

شوح كصبى ثائر على وضعه:

- «يقول لى إن هؤلاء الجماعة الذين سأدفن معهم في هذه الطربة سوف يستغربون وجودى بينهم! سيقولون لبعضهم من هذا الذى اندس بيننا؟! من أى داهية جاءنا لينحشر فى وسطنا؟!»..

كتمت ضحكتى:

- «ولماذا يقولون هذا؟!»..

نظر فى عينى مستنكراً غبائى:

- «يا خال هؤلاء رجال كبار متعلمون! ولد فتوات! إيش اكون أنا بينهم؟! أطلع ايه انا؟! بتاع سمك وزفاره لا هنا ولا هناك جاى يفرض نفسه على ناس كبار!!

ميصحش يا آبا! قلة قيمه طبعاً! يمكن قلة حيا! وقلة أدب كمان!!»..

كان جادا كل الجد فى كلامه، لدرجة أننى شعرت به يحبس دموعه يحاول بشق النفس السيطرة على انفعاله. فكان لابد أن

أخرجه من هذه الحالة بأى شكل. قلت له:

- «يا راجل لا تشطح هذه الشطحـــات! الأهم من هذا أن تشطح فى شئ مفيد! قصيدة شعر مثلا! لماذا لم تعد تكتب الشعر؟!»..

فكأنه عاشق حدثه صديقه فجأة عن معشوقته، إذ انتابه خجل عميق دفق الدم والحيوية فى وجهه، ضحك ضحكة جزلة مقطومة. ثم انطلق يسمعنى شعراً جديداً، فى إلقاء منغم مسرحى متقن يعكس افتناناً بالكلمات وباللعبة الفنية من أساسها. مجموعة من المواويل فيها الكثير من وجاهة الرؤية، والإبهار المفاجئ، والقدرة الفطرية على استعمال الجناس والمفردات المتشابهة..

صرت أطرب وأبدى إعجابى بحماسة وحرارة. فإذا هو يبدو كأنه خارج لتوه من الحمام المنعش. خيَّم عليه سمت من الهدوء والتطامن والأريحية والصفاء. استغرقته هذه الحالة برهة طويلة صامتة صمتاً ذا جلال مهيب يضمر الكثير من المرح. جعلت أرقب شروده الجميل، حيث قد صغرت ملامح وجهه عشرين عاما، ارتدّ شابا يتلقّى رضاء أبيه على نجاحه فى الشهادة الكبيرة..

بعد برهة أطول، وبعد أن كدتُ أنسى الأمر، فوجئتُ به ينظر

نحوى متسائلاً فى خجل طفولى متشكك:

- «صحيح يا أستاذ الكلام ده عاجبك بجد؟!»..

بجماسة شديدة أردفت:

- «جداً جداً يا عم احمد! أنت أصبحت شاعراً»

فإذا به يعاجلنى فى لهفة:

- «يعنى الجماعة دول مش حيحتقرونى لمَّا يلاقونى مدفون معاهم؟!»..

لم أجد رداً سوى البسمة الواجفة، ثم امتد بيننا صمت عميق غنى كان أبلغ وأكمل من أى كلام.

عدل المسامير

سلمنى أبى إلى المعلم بدر محمود - أشهر وأقدم نجار فى بلدتنا - قائلاً له:

- «أريد أن تجعل منه رجلاً صاحب صنعه! خده بالشدة افعل ما يحلو لك فأنا استغنيت عنه!»

ولكى يثبت صدق قوله، وليشجع المعلم بدر، ويريه عَيِّنة من المعاملة التى يطلبها لى، صفعنى على وجهى بضع صفعات طيَّرت الشرار الأحمر من عينى. أمسكت بعينى ساقطاً فى الأرض، أصرخ بكل قوتى لعلى أوقف ما شبَّ في عينى من لهب.

ولم يكن لذلك ثمة من سبب سوى أننى طلبت الذهاب إلى المدرسة وهو غير قادر على الصرف، فى نفس الوقت لم أكن أصلح كنفر للشغل فى الوسية، الأمر الذى جعله يضيق بى وبوجودى كله كأننى العقبة الوحيدة فى حياته ومانع رزقه. سمعته فى الليل الجوانى يقول لأمى في استنكار يفيض بالهزء والسخرية فيما أنا متمدد على حصير فوق الإرض بجوار إخوتى:

- «مدرسة!! يعمل أفندياً على آخر الزمن! البلد ينقصها الأفندية! من بكرة لابد أن يتعلم صنعة تنفعه! لابد أن تنكسر نفسه ليعرف أن الله حق!!».

لحظتها كانت أمى تفلينى، بتسريب يدها المخشوشنة تحت

ثوبى المتهرئ،، فتمسك بالقملة المنتفخة تلقى بها فى فمها بين أسنانها فتطرقع. كان صوت الطرقعة يصنع إيقاعاً أليفاً لعودة يدها إلى ضلوعي وخروجها منها. توقعت أن تقول شيئاً لكنها بقيت صامته، ربما لأن فمها مشغول بما هو أهم، فدفاعها عن دمى الذى تمصه هذه الحشرةالخبيثة، لا يشفى غليله سوى أن تقرش الحشرة بأسنانها، مما شغلها عن قول كلمة تدافع بها عن مستقبلى المهدد بالضياع. حينئذ شعرت بأن يدها قد بدأت تضايقنى فبدأت أتململ فى رقدتى لأعوق يدها عن السرحان بين ضلوعى، فما كان منها إلا أن شكمتنى فى فمى بقبضتها الثقيلة في غضب، فلما تألمت متأهباً للبكاء قرصتنى بعنف شديد فى فخذى، مدمدمة من بين أسنانها المطبقة: هُسٍّ! إكتم. فظللت منكتماً حتى خرج أبى لصلاة الفجر فانفتحت فى البكاء. فكلما تماديت فيه لطمتنى على وجهى لأسكت، فيزداد بكائى، فيتضاعف لطمها لى مهددة إياى بدفن رأسى فى الكنيف إن تسببت فى إيقاظ إخوتي من النومة الحلوة. عند ذاك تعبت فاستغرقنى النوم برهةً وجيزة ما كدت أشعر براحته حتى صحوت على يدٍ تهزُّنى بقوة. وكانت الشمس طالعة، وأبى واقف فى الدهليز ينتظرنى. غسلت وجهى بملء كوز من ماء الزير المثبت فوق قاعدة من الإسمنت فى ركن من الدهليز، ثم أكلت نصف بتَّاوة مع رأسين من اللفت وجرعت كوب ماء، ومضيت

خلف أبى.

رفعنى المعلم بدر عن الأرض بيده الكبيرة الصدئة المليئة بشعر كثيف، فاشخاً حنكه عن أسنان كبيرة صفراء بارزة فى تقوس، فبدا حنكه كشرخ فى قبة ضريح آيل للسقوط. قال:

– «محلا يا محلا! خذنا يا ولد فى عشرة لهجة! أنت لم تشهد الضرب على أصوله! أنا لا أضرب إلا بالشاكوش خلّ بالك!».

ثم كلفنى فى الحال بالمهمة التى لابد أن أتمرن عليها حتى أتقنها. قدم لى صندوقاً خشبياً صغيراً يمتلئ لحافته بمسامير قديمة صدئة معووجة وملتوية وحلزونية، تم نزعها من خشب قديم كان أبواباً وشبابيك وطارات سواقى وألواح أسقف. سلمنى الصندوق وقطعة من قضيب حديدى ثقيل تشبه السندان، وشاكوش. وأمرنى أن أعدل هذه المسامير واحداً واحدا، بحيث أمسك المسمار من رأسه الدائرى المبطط، فأثبته على السندان وأدق عليه بالشاكوش، مقلباً مسوياً حتى وضعه الأصلى ويصبح قابلاً للدق من جديد فى الخشب.

مهمة ما أشد ثقلها وعذابها. ضربات الشاكوش تتساقط فوق أصابعى مرات عديدة قبل أن تسقط على المسمار مرة واحدة، حتى صدئت يدى وتورمت أصابعى وباتت موضع ألم لا ينتهى. مع ذلك لم يكن شغلى يعجب المعلم بدر، الذى كان يحلو له مراقبتى من بعيد، لأفاجأ بيد كالمرزبة تسقط فوق قفاى

فتكفؤنى على وجهى:

-«إعدل المسمار بذمة! تمكث نصف يوم في عدل عشرة مسامير؟!».

تظل يدى بعد ذلك ترتعش، يتضاعف المسمار الواحد بين أصابعى من خلال الدمع المنسكب، فأمد ذراعى لأمسح عينى بكم جلبابى القذر الملئ بالعرق والوسخ. لكننى وإن دُربت على عدل المسامير جيداً، لم أكتسب السرعة المطلوبة، مما كان يعرضنى للضرب بكافة الأسلحة المتاحة: بيد الشاكوش الخشبية فوق جبهتى وأصابعى، بخيرزانة تساق بها الحمير، بمرينة من الخشب على ضلوعى، بالفارة تقذف فى صدرى من بعيد، بصندوق المسامير نفسه، بروث البهائم، ببراد الشاى، فما زادنى كل ذلك إلا لخمةً وارتباكاً.

مضيت وراء المعلم بدر محمود أحمل المنشار معلقاً فى كتفى كالبندقية، والفارة فى يد، والقادوم والشاكوش فى اليد الأخرى. كنا مشغولين طوال الأيام الفائته بتركيب «مقعدين» - يعنى حجرتين فوق دار كبيرة - من خشب البغدادلى. والمعلم بدر أروب فى هذه الصنعة، يصنع الجدران فى الورشة وهى عبارة عن مجموعة من مرائن من الخشب المتين يكسوها بشرائح رقيقة من الخشب. تنتقل الجدران إلى الدار التى ستركب فوقها، ويكون المعلم بدر قدحفر لها جيوبا في حافات

الجدران تستقر فيها. ثم يرفع بالحبال، فيثبتها في جيوبها ثم يساندها بمداميك من الحديد والمسامير البرمة والحدادي تربط الجدران ببعضها وتربطها بأرض السقف ربطاً محكماً، ثم يمدّ فوقها عروق الخشب، ومن الداخل - بواسطة السلم النقالي المجوز- يثبت فوق العروق القريبة من الجدار لوحاً من خشب الأبلكاش يتسلقه فيتقرفص فوقه ليدق فيه المسامير جيداً. وحينئذ يتعين عليّ أن أصعد إليه حاملا العدة، لأقعى بجواره أناوله المسامير وقطع العدة حسب أولوية احتياجاته إليها، بحركة تمرنت عليها جيدا..

كنا قد انتهينا من إقامة الجدران الخشبية في دار الحاج سيد شعْرط وبعد صلاة العصر بدأنا في تركيب ألواح السقف وسط لمة كبيرة من الصبيان والرجال الخارجين من صلاة العصر في جامع العصاورة المواجه للدار، حيث كانوا جميعا مبهورين بهذا التطور الذي أصاب دار الحاج شعوط فجعلها سراية من طابقين عاليين، فما بالك بها بعد ما يتم تغفيق هذه الجدران الخشبية بالطلاء الملون. صرت أتجنب النظر إلى الأرض من هذا العلو الشاهق، وأتوجس من وجه المعلم بدر الذي يكفهر في العادة بعد العصر إذ يتأخر عليه الولد الذي ذهب ليشتري له قطعة الأفيون من السيد الجمّال في عزبة صبّاح. صارت العفاريت تتنطط على وجهه، والريالة تذرق شفتيه والبرابير تسيل

من منخرية بغزارة فيمسحها بكم الفانلة المتسخة فيما هو منخرط مع ذلك في دق المسامير في ألواح الأبلكاش بحرفنة وثبات، لكنه يصبّ غضبه عليّ أنا وحدي:

- «تحرك! تلحلح! الشاكوش يا ابن اللوطي! هل أنا طلبت الشاكوش؟ قلت القادوم يا حيوان! هات الكماشة بسرعة!».

ذلك أن مسمارا ينعوج تحت دقاته العصبية السريعة. أناوله القادوم أولاً حسب طلبه، فيصك جبهتي بيده الخشبية السميكة الصلبة صكة يطير لها مخي، ثم يرميه بجواره. من فرط الارتباك تختفي الكماشة عن عيني في تلك اللحظة فألف حول نفسي كالدائخ أكاد أنزلق من بين عروق الخشب.

قرب المغرب جاء له الولد بسنَّة الأفيون، فأصر المعلم بدر على الانتهاء من تركيب السقف على ضوء الكلوب، فأضيفت إلى مهماتي مهمة جديدة هي تقريب الكلوب منه كلما ابتعد عنه، في حرص شديد حتى لا تقع الرتينة وتنصلر لشراء غيرها ونضيع الوقت في إعادة إشعاله. ولكن ما أخشى منه يقع دائما، فمن لهوجتي مددت للمعلم الكماشة فلطشت الرتينة فأسقطتها، فتحشرج صوت الكلوب ثم انطفأ. انزويت مرتعشاً في مكان بعيد أنتفض من الخوف إلى أن جئ برتينة جديدة تم تركيبها وتكفل أحد الرجال بمهمة الإمساك بالكلوب حتى انتهى تركيب السقف.

وكنت أظن أن المعلم بدر تجاهل عقابي، لكنه قبل أن يهبط عن السقف إلى سقف الطابق الأول أشار لي فاقتربت، فأطبق بيديه على قدمي، ثم برم ذيل ثوبي حولهما بإحكام، أمسك به، دفع بجسدى إلى الفراغ، رأسى فى اتجاه الهاوية وقدماى مصلوبتان إلى أعلى، فيما راح هو يصيح من بين أنيابه:

– «هيه! أرميك على جدور رقبتك؟!»

تذهب صرخاتي أدراج الرياح. إذ أنه يمسك ذيل جلبابي المبروم، يضعه فوق لوح السقف، يثبت فيه مسماراً، بالشاكوش يدقه فى لوح الخشب، أتبعه بمسمار ثان فثالث فرابع، ثم تركنى معلقا من قدمى وجسدى يتطوح فى الهواء، ونزل يعدل طوق جلبابه مشعلاً سيجارة. وفيما كان يخرج من باب الدار متوجها إلى داره البعيدة نظر إلى أعلى فى اتجاه رأسى المدلى صائحاً بأنه – عقاباً لى – سيتركنى هكذا حتى الصباح!

وها قد مضى على ذلك الحادث خمسون عاما، ولكننى منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم أشعر بأننى لا أزال معلقاً فى الهواء من ذيل جلبابى: قدماى مصلوبتان فى وجه السماء ورأسى يتدلى فى اتجاه الهاوية

سمك مشوى

لم يكن سهلاً علينا أن نغادر مدينة السويس. والأصعب على النفس أن نغادرها وحدنا بدون أبي. لكننا مع ذلك غادرناها ذات لحظة واجمة تجمد فيها كل شئ: الزمن والهواء والماء في وجوه أمي وإخوتي. غرقنا في ذهولنا يوم تأكدنا من النكسة ومن أن الجيش المصري قد تاه وتشرد في الصحراء بدداً وأن جميع مطاراتنا الهشة قد تم تدميرها قبل أن يبدأ تدمير بيوتنا..

كالأوزة المهيضة الجناح تجولت أمي في كل أنحاء الشقة مرات لا حصر لها، أتت في كل مرة بشئ جديد نسيت وضعه في الجولة السابقة حتى فرد الشباشب القديمة التي تقذف بها القطط وتسحق الصراصير عبأتها في الصرة الأخيرة التي لم تربطها بعد، فيما تحلقناها صامتين جالسين فوق البطاطين والألحفة والمراتب والوسائد المبرومة المربوطة الممددة كجثث قتلانا في شوارع المدينة وكل حواريها تنتظر من يرفعها، وقالت لأبي المتقرفص على عتبة الباب مستغرقاً في شروده الحزين مرتدياً بدلته الصفراء الكالحة التي يتسلمها كل عام من هيئة السكك الحديدية كعامل دريسة وكانت يدا أمي ممسكتين بأطراف الصرة استعداداً لربطها:

– «هيه! راجعت نفسك؟!»

– «نعم!»

قالها مبتورة غامضة غاضبة..

- «ستجئ معنا؟»

- «لا!».

خرجت من فمه دون أن يحرك شفتيه، حاسمة قاطعة ونهائية. فى الحال شرعت أمى تربط الصرة بعصبية شديدة كأنها تقفل على الموضوع إلى غير رجعة. وكان وجهها الفلاحى العتيق المدور قد تكورت وانعجنت فى بعضها. صارت قامتها القصيرة السمينة المدملجة تهتز وهى تفرُط على الرباط بقوة تعقد فوق العقدة عقدات. من يراها لا يقتنع أن هذه الشابة النشطة القوية العضلات قد أنجبت خمس صبيان أصغرهم أنا فى معهد الخدمة الإجتماعية وأكبرهم حلاق سيدات كسِّيب أغرى إخوته الثلاثة الباقين بالانتساب إلى نفس المهنة، وثلاث بنات تزوجن فى بلاد مختلفة..

أخى الكبير محمد جاء بالسيارة. فوجئنا به يصعد فى صحبة التبّاع قائلا: «لا يجب أن يسرقنا الوقت!». فشرع التبّاع يحمل أول لفة فراش على ظهره بمساعدة إخوتى. فقال أبى كأنه يريد أن يكسِّر مجاديفنا بالخوف فلربما تراجعنا عن الرحيل:

- «ربنا ينجيك من الغارات! إبعدوا عن طريق الكنال!»

قالت أمى:

- «الرب واحد والعمر واحد!».

- «صدقت! ولو كان مكتوبا لنا الموت لمتنا من وقت طويل فات! هذه أعمار بيد الله! دانة المدفع كانت تمر لصق دارنا لتدخل دار الجيران!».

- «وفي المرة القادمة تصطادنا بعد أن صارت شقتنا عريانة!»

- «إنها أفضل من الشحططة والبهدلة في بلاد الناس!»

- «الحمد لله أن لنا أهل في بلدة دمليج منوفية نذهب عندهم!»

- «غدا يضيق الأهل حتى بأنفسهم!»

- «نقطنا أنت بسكوتك!»

- «ربنا معكم! سلموا على بلدة دَمليج بحالها وخصوصا أهلك كلهم!»

- «لن أسلم على أحد!»

- «آه! أنت حرة! الله الغنى!»

- «من يريد أن يسلم على أحد يروح بنفسه يسلم!»

عند ذاك لاذ أبي بالصمت، صار يتفرج على العفش وهو يخرج قطعة قطعة. أخيراً نطق:

- «طب وهدومي؟!»

- «ها هي!»

وأشارت إلى صرة جنّبتها فوق ملّة السرير الخشب الذي

صار عارياً كجسد عجوز شكله منفر.

وكنت آخر المنصرفين، فراقبت أبي وهو يشيّع الجميع واحداً واحداً، ومع كل واحد تنهار من ملامحه كتلة من الدماء، حتى بدا أصفر الوجه متغضن الملامح تعيساً ضعيفاً مهزولاً، كطفل تركه أهله في صحراء موحشة، وقد تحجرت الدموع في عينيه من فرط الرعب. ثم انتبه لوجودي، فردت الدماء في ملامحه قليلاً. لاذت بي نظراته المتلهفة وأنا أغادر باب الشقة. طفرت الدموع من عيني، ودوّى في الفضاء هدير القنابل الصاروخية فزلزلت الكون كله وانتفضت أنا كريشة في مهب الرياح، في حين بقي هو متجمداً في مكانه لا يقوى على الحركة، مع أن الجدار من خلف ظهره قد ارتج. وجدتني أقول له فجأة:

- «سأبقى معك! ما يجرى عليك يجرى علىّ!»

هتف كمن ردت فيه الروح:

- «راجل زى أبوك! إن شاء الله انت اللى حتنفع فيهم!»

شعرت كأنه يرشوني ليغريني بالبقاء، فثمة رعشة في صوته أنبأتني بأنه رغم ترحيبه ببقائي خائف عليّ من هذا البقاء. جريت إلى الشباك المطل على الحارة، فتحته وصحت بأعلى صوتي:

- «سأبقى مع أبي! توكلوا أنتم!»

لكن السيارة كانت تحركت بالفعل ظنا منها أنني ركبت

معهم، فلم أكرر صيحتي. أغلقت الشباك وجلست في مواجهة أبي وقد شعرت أن خيطاً ما كان يربطني بالحياة قد انقطع وانتهى الأمر. نبت في ذهني خاطر يشي بأنني ربما نجحت في إقناع أبي بعد يوم أو يومين بالرحيل، معزياً نفسي بأنه لابد سيضطر إلى الموافقة رغماً عنه بعد أن تزداد الحالة سوءاً، سيما وأن القصف العنيف لا يتوقف إلا ليعطي الناس وهماً بالتوقف لكي يستأنفوا الحياة فينقض عليهم من جديد..

غرقت المدينة في جب ظلام حالك ذي سقف سميك تلمع فيه بوارق اللهب الخاطف وكأن مردة الظلام يخرجون ألسنتهم الساخرة العبثة. ما أن يختفي بريق اللهب حتى تنفجر السماء من فوقنا من تحتنا من حوالينا ورائحة البارود ممزوجة برائحة الخوف برائحة عواصف التراب العطن المتصاعد من جوف هديم متراكم لاينى يتجدد بلا نهاية. طعم التراب والدخان يبقيان في حلقي في أنفي في صدري، تراب عتيق لزج رطيب زنخ كعرق العبيد. لدوي الإنفجارات طبقات صوتية متعددة ذات ترددات تنداح في الأفق لترتد عائدة وقد ضوعفت وازدادت كثافتها فتضرب جدران البيت في مقتل. تنفجر الثواني والدقائق تتفتت تتبعثر يستطيل عمر الرعب. دُرّبت أذني على تمييز صوت انشراخ الفضاء من صوت انفجار القنبلة من صوت انهيار الجدران على الأرض واتكاء عمائر بسطها فوق بعضها

البعض. ما بين حين وحين يعبث الهواء المسموم المليء بالخبث بصوت صراخ بشرى ما يلبث حتى ينكتم في الحال، وعويل نساء يتطاير مترنحاً في الهواء كطائرات ورقية سرعان ما يصادفها التحليق فالإختفاء التدريجي. مثلما تعجز أقدام العماليق عن دهس جحور النمل في سيرها تخطئ صواريخ الطائرات وحاملات القنابل أعشاشنا القزمية الحائلة المندسة في أمعاء المدينة. معظم ما انهار من دور في حوارينا زلزله صوت انشقاق الهواء بسبب أثناء ارتحال القذيفة إلى مستقر لها..

كل ذلك وأبي متقرفص في مكانه المفضل بجوار الباب، فوق فروة خروف كان قد ذبحه يوم فرحه ليلة دخلته على أمي منذ ثلاثين عاما. ما يكاد ينتهي من تدخين السيجارة حتى يسرع بلف غيرها مطمئن البال طالما أن جميع النوافذ مدهونة بالأزرق القاتم. لايني يردد مع كل قصف: «طيب! طيب يا أوساخ ياولاد الوسخة! إفتروا زى ما انتوا عاوزين ما هي آخرتكم قربت! واد يا حسن! يا ترى أمك خدت معاها المطبخ كله؟!». قلت: «ما أظنش»، ونهضت في الحال هرولت إلى المطبخ وجدت كل شيء كما هو: البوتوجاز والثلاجة الثمانية قدام والمطبقية كاملة بالحلل الألمونيوم. أمي التي جبلت على الحنان تركت على سطح البوتاجاز حلة أرز، رفعت غطاءها فوجدتها ملآنة

بالكشرى بعدس أصفر، فوقه عشر بيضات مسلوقة مقشرة ليتعشى بها أبى إذا ما أصر على البقاء أو تأخذها إذا وافق على المغادرة. تذكرت أننى جائع وأن أبى لم يأكل طول النهار. جئت بالحلة وملعقتين، تقرفست أمامه وهى بيننا. أكلنا وصوت القصف يزحزح الحلة فنعتقلها بيد الملعقة أو نسندها بيدنا. حاول أبى أن يستدرجنى للانبساط. قال باسما: «ما ألذ أن تموت وأنت تأكل!»، ثم مسح شاربه الكثيف المسترخى على جانبى شفتيه، واعتدل فى قعدته راح يبرم سيجارة من علبته الصفيح الممسوحة المتغضنة، قال:

– «أما لو كباية شاى قبل الصواريخ ما تفرتكنا؟ على الأقل نموت ومزاجنا معدول! أنا أصلي باحب السويس دى قوى ياد يا حسن!! هي عندى زيكم بالضبط يمكن اكتر ما اعرفش ليه لكن اهو باحبها وخلاص! كل اللى أعرفه عن تاريخها إن ابويا خدته السلطة مع ناس كتير عشان يغوطوا الكنال! وما رجعش من يومها يعني أنا ما شوفتوش أصلا!! الكلام ده كان حوالي سنة ١٩١٠ وكان ابويا لسه عريس! أبوه ما كنش عنده غيره وجوّزه بدرى عشان يفرح بيه! يا دوبك حط بذرتي وتاني يوم خدوه الغفر ما رجعش!! لما كبرت قالو لي: جيت من المنوفية على هنا قلت يمكن ألاقيه واتعرف عليه جايز تكون واحده من بنات البندر لافب عليه وخدته!! إيش قولك ياد يا حسن إني قعدت سنين

طويله يتهيأ لى إنى حاقبله!؟ وكل ما يصادفنى واحد يشبه أوصافه آخد وادى معاه فى الكلام ألاقيه مش هوه مع إنه يشبه له فى كل حاجه سمعتها عنه! يعنى أقول وهوه مش هوه لكل واحد أقول هوه يطلع مش هوه! ومش هوه يمكن هوه!! قول لقيت لى ييجى سبعتلاف تمنتلاف أب هوه ومش هوه!! لكنى حبيت الكنال! والسويس! ربنا رزقنى فيها! وظيفه فى الحكومة واتوظفت! شغل فى المينا بعد الظهر واشتغلت! لولا كده ما كنتش قدرت أتجوز أمكم ولا أخلفكم! إدتنى كل حاجه طلبتها من ربنا واتمنيتها!!وأول ما تقع فى وكسه زى دى أسيبها وامشى؟! دى حتى تبقى قلة أصل! مش فيه ناس هنا من أهالينا بيحاربوا؟ دول مش لازمهم حد يخدمهم ويقدم لهم مساعدة؟! إذا كان ولاد القحايب اللى بالى بالك سابوها وهربوا نعمل احنا زيهم؟! وطربة أبويا اللى ما شفتوش ما يحصل أبدا أبدا!!»..

كنا قد شربنا ثلاثة أدوار من الشاي الثقيل المخروط على الوابور السبرتو حينما تناهى إلى سمعنا صوت آذان الفجر يبعثه ميكروفون قادم من جهة سيدى الغريب. صاح أبى فى ورع وابتهاج:

- «الله أعظم والعزة لله! لسه البلد فيها ناس اهه يا حسن! الحمد لله إن ربنا لسه موجود والكنابل مقدرتش تسكته! إيه رأيك يا ولد نقوم نصلى

وندعى يمكن ربنا يعطل الطيارات دى ويهدها شويه؟

ما تخافش حنصليه هنا! بس نقوم الأول نتوضا!»

فوجئنا أن المياه مقطوعة عن الصنابير مثلما انقطعت الكهرباء عن المصابيح. أفرغ أبى مياه القلة الفخارية - المغرم بالشرب منها - في زجاجة من زجاجات الثلاجة حتى لا تضيع في الرشح. ودعا لأمي دعوتين حارتين لمّا تبين أنها عملت حسابها فملأت بعض الجراكن وركنتها تحت حوض الحنفية..

لأول مرة أركعها، وخلف أبي، فكانت صلاة مهيبة إلى أقصى حد، وكان صوت أبى وهو يتهدج بقصار السور التي يحفظها يزيدنى رهبة وجدية واقترابا حقيقيا من الله فى تلك اللحظة الجهنمية بكل معنى الكلمة. بعدها أخذنا النوم في مطرحنا، فإذا بى أجدنى مندساً فى زحام هائل تبينت أنه مولد كمولد السيد البدوى وكنت فرحاً نشواناً إذ أجرب قوتى فى دفع قطار البمب فتتوالى المفرقعات فأنتقل إلى التنشين بالبنادق على البمب أيضاً فلا أخطيء الهدف فأصيح فى كل مرة صيحة انتصار ضاحكة فيما يصفق لى المتفرجون..

حينما فتحت عينى كانت الشمس تصهر اللون الأزرق على الزجاج تتسرب من مسامه ومن فتحة الباب الذى تركناه مفتوحاً. نهضت جالساً فلم أجد أبى بجوارى، بحثت عنه فى أنحاء الشقة فلم أجده. بيد مرتعشة فتحت الشباك المطل على

الحارة فهالني منظر الخراب المتوحش. في البعيد الذي انكشف أمامي لم أجد حارتنا، بركت البيوت ركعت على الأرض قديما متكوفا فانفسح المدى أمامي. رأيت جدران عمائر هائلة تقوضت فبانت فراغات الحجرات بما فيها من أسرة ودواليب وغرف جلوس وسفرة، بانت مطابخ ودورات مياه مبقورة البطون. وعمائر أخرى انعوجت وتكسرت قاماتها. أذرع وسيقان وأدمغة تبرز بين أكوام الهديم وكلاب ضالة تحوم حولها، حقائب مدرسية وأنابيب غاز، حلل وأطباق مهشمة، أجهزة تليفزيون أمعاؤها في ناحية وصناديقها الفارغة في ناحية، جدران داخلية تظهر من طوابق الفجوات ملونة بالأخضر والوردي والكريمي الذائع، معاطف وقمصان نوم علقت أثناء طيرانها في شبكات الهوائيات المغروزة في كثبان الهديم كخيال المآته. إنكسر قلبي، وبوت نظراتي تبحث عن أرض حارتنا، نبت من خلف الهديم المواجه رأس سرعان ما تبينت فيه رأس أبي، أخذ الرأس يعلو في بطء، والرقبة تعلو على كتفين مقفعين ليظهر صدر البدلة الصفراء محاطا بذراعين يحتضنان لفة كبيرة من ورق شكائر الإسمنت تطل منها أوراق خضراء لعلها من شجر الموز أو الخروع. عندما اكتملت قامة أبي فوق سنام الهديم صار بإمكاني – في وقفتي في شباك الطابق الرابع– أن أصافحه، بل صار بإمكانه أن يدلف داخلا من الشباك. ميلت جذعي كله

ناظراً فى الأرض أبحث عن الباب الذى خرج منه، فإذا الهديم قد أكل مساحة الحارة وامتدت الأحجار وقطع الطوب إلى عتبة بيتنا من الداخل فحمدت الله أن أمى لم تر هذا المنظر، وحمدت لها رجاحة عقلها وإصرارها على ضرورة الرحيل فى لحظة ملهمة. اقترب أبى كثيرا من الشباك فانخفض قليلا. رفع ذراعيه الطويلين إلى أعلى باللفة، فمددت ذراعى عن آخرهما وتلقفتها منه فى حرص شديد فإذا هى كما توقعت لفة سمك طازج سخى شهى: بلطى وبورى وبياض ودنيس. قال بعد أن أطمأن إلى سلامة وصول اللفة، فى فرح طفولى بهيج:

– «ورينى شطارتك بقى يا حسن! فاكر امك بتشويه
ازاى؟ زى ما كانت بتعمل بالضبط إعمل! مش
باقول لك البلد لسه فيها ناس؟ لقيت تلاته من
زمايلى مارضوش يهاجروا! فرحت بيهم حلفت
طلاق تلاته لاعزمهم على الغدا!! ساعة ولا
ساعتين تلاته بالكتير وحنيجى نتغدى! إسمع!
إسلق لنا شوية رز! ضرورى تكون بتعرف!يلا
يا بو على ما تضيعش وقت!»

وقفل عائداً يتسلق الهديم يتعثر فى نتوءات صلبة. فرحت بوجود شيء أنشغل فيه. جعلت أستعيد منظر أمى وهى تنظف السمك جيداً تشق بطنه تستخرج أمعاءه تحتفظ بالبطارخ تحشو

البطن بخلطة الثوم والحباش تشعل النار تحت قطعة الصاج العريضة حتى تلتهب ثم تغمس السمك فى النخالة وتضعه فوق اللهب. قمت مثلها بتنقية الأرز وغسله قلوت حفنة منه فى السمن ثم أضفت البقية وزودته بالماء وخفضت شعلة النار تحته وانصرفت لأشوى السمك

فرشت طبق الغرف الكبير بالورق الأخضر، رصصت فوقه السمك المشوى فى منظر بديع. كان المطبخ ملتصقا ببلكون صغير محندق يطل على منور البيت، فيصنع مع بلكون المواجه تقابلاً أليفاً حميما. دخلته، إرتكنت بمرفقى على حافة البلكون المبنية بالطوب المغفق بالإسمنت. تذكرت زوجة جارنا الطيبة أم ألفت وهى تنشر غسيلها فوق هذه الحبال التى لاتزال ممتدة حول بلكونهم هذا، وكيف كان يحلو لى استراق النظر من المطبخ إلى جسمها البض وأفخاذها وأردافها الممتلئة وقد التصقت عليها الثياب المبلولة بماء الغسيل. أين تراها الآن قد هاجرت بأولادها وزوجها العجوز الذى يعمل كناساً فى البلدية؟ أتراها تتحول إلى عاهرة فى بلاد الناس والغربة؟ طوال سنى جيرتها لم نعرف لها أهلاً ولا بلدا فأين تكون قد ذهبت وتركت كل شبابيكها مفتوحة يحيط بها الهديم من ثلاث جهات؟ أصبح بلكونها مزرعة للقطط الضالة تتعارك فى شراسة وجلبة هائلة..

دقت الساعة فى مذياع مجهول المكان واهن الصوت ثم

انبعثت موسيقى نشرة أخبار الخامسة ثم ما لبثت أن اضمحلت تماما. كل هذا الوقت مضى ولم يأت الضيوف بعد؟! حملت طبق السمك، وضعته على حافة البلكون. خيم علي المدينة سكون خرافى عميق ما أن أدركته حتى اندفع القصف فاستمر بغير انقطاع لمدة طويلة ارتفع إلى ذروة كثيفة ثم كف تماماً لمدة طويلة جداً. مضيت نحو الشباك أستطلع قدوم الضيوف. جابهنى الدمار تسطع فوقه الشمس المحمرة، ليس ثمة من بشر على الأطلاق. إذا بقلبى يسقط فى أثر دوى هائل خلف ظهرى ارتجت له الأرض لكنه لم يكن قصفاً. استدرت فزعاً وقد نشف ريقى غاضت الدماء فى عروقى، إنه صوت سقوط شئ ثقيل على ارض المنور. توقعت أن يكون طبق السمك قد اختل توازنه فسقط. اندفعت أجرى إلى البلكون. وجدت الطبق كما هو فى مكانه، وطابور من القطط يقعى متحفزاً في مواجهته على حافة البلكون. نظرت فى أرض المنور ، رأيت قطة سمينة مجندلة على الأرض فاقدة الحياة رافعة أرجلها إلى أعلى، فعرفت أنها حاولت القفز من بلكون جارتنا إلى طبق السمك فلم تقو على قطع كل هذه المسافة فسقطت فى الفراغ مهشمة الرأس. عدت إلى الشباك أنتظر. إن هى الا دقائق حتى هزنى الدوى ثانية بنفس ألقوة، فاندفعت أجرى، فإذا بقطة أخرى حاولت نفس المحاولة فلقيت نفس المصير. ما كدت أعود إلى الشباك وأستقر فى

وقفتى حتى دوّى الهبد مرة ثالثة، فلم أتحرك، ثم رابعة، فخامسة، فسادسة. فى المرة السابعة قررت نقل السمك إلى داخل المطبخ. وجدت طابور القطط مجند لكله على أرض المنور فاقد الحركة، وثمة طابور آخر يتهيأ قادماً يتسلل من داخل شقة الجارة المهاجرة. وكان القلق يرتفع فى داخلى يدق رأسى بمطارق حادة، وثمة رائحة حريفة تقبل من مكان ما منذ ساعات مضت فتطبق على صدرى تصيبنى بالكآبة والرعب القاتل، رائحة شواء هى الآخرى، شواء جلد بشرى يحترق. الشمس فى الخلاء قد اصفرت ثم شحبت، ورائحة الاحتراق قد سكنت كل شعرة فى أنفى. شعرت أن البيت يضيق حولى تتقارب جدرانه تكاد تسحق عظامى بينهما. بحثت عن صندلى، وضعت قدمى على عجل. نزلت. خرجت بصعوبة من باب الشارع الذى كان الهديم يزحف عليه شيئاً فشيئا حتى كاد يسده تماما. تسلقت الهديم، مضيت فوقه، هبطت من الجانب الآخر. بحثت عن الشارع الموصل إلى بوفيه «سوكا» حيث يتجمع عمال السكة الحديد، عجز رأسى عن استعادة الخريطة القديمة لكننى مشيت فى كثير من المنعرجات، والرائحة الكريهة تتعاظم. اصطدمت بجثة متفحمة تماما، على مبعدة أمتار منها تعثرت فى جثة أخرى سيَّحتها قنابل النابالم فبدت كالبيض المقلى النازل لتوه عن النار يطش فى الدسم. أدرت بصرى عنها بسرعة، فصدمنى

منظر جثة ثالثة تكورت على نفسها شوهاء فى حفرة عميقة. على مقربة منها أشلاء مبعثرة على مساحات متباعدة. بقلب متهرئ صرت أنحنى على كل شلو من الأشلاء أتفحصه بعين ثاقبة هالعة. كانت هى الأخرى تكاد تتحلل، وصوت أبى يرن فى أذنى «أقـــول هوه يطلع مش هوه! ومش هو يمكن يكون هوه؟!». اختطفت عينى فردة حذاء مرمية إلى بعيد، جريت نحوها، رفعتها، إنها تشبه حذاء أبى. أرعدت السماء فانبطحت أرضاً وطارت فردة الحذاء وامتلأت الدنيا كلها بالغبار والدخان. ما أن سكت صوت القصف حتى قمت مسرعاً أجرى نحو فردة الحذاء يحدونى الأمل فى التعرف عليها جيداً. ثم أخذت أجرى بأقصى سرعة، يفضى بى الهديم إلى شوارع مرصوفة، تفضي إلى هديم، حتى خرجت عن المدينة فى اتجاه الطريق الزراعى. وبعد ساعات طويلة من اللهاث المضنى أفقت على نفسى جالساً فى عربة من عربات الأرياف متجهة إلى بلدة دمليج، ممسكاً فى يدى بفردة حذاء كالحة.

الشفرة

خطفت عينيه وهى مقبلة نحوه في الشارع المزدحم، كانت رشيقة القوام منحوته الجسد بأزميل ربانى جسّد كل معالمه بحدة ونعومة، عريضة الكتفين بارزة النهدين نحيلة الخصر داخل فستان بنوتى زاهى اللون يجمع بين الأحمر والرمادى الفاتح، يكاد جنبها الأيمن يختفى تحت إبط شاب سمهرى القوام يرتدى سترة جلدية سوداء على سروال رمادى فاتح، يبدو من رشاقة جسده ووقع خطوه المنضبط كرياضى مفتون بنفسه. وكان من الواضح أنهما فى المراحل الأولى لأيام الخطوبة.

تابعهما بنظرات حانية وهما يشقان بحر الزحام على الرصيف الممتلئ بالمارة والباعة والبضائع. تعلقت نظراته بوجهها القمحى المضئ بمسحة من البراءة الشهية، ثغرها الباسم عن أسنان ناصعة البياض دقيقة، وخصل من شعرها الأسود الغزير تصنع فوق جبينها مظلة تكسر حدة البريق فى عينيها. نهض الحلم القديم فى قلبه. إنسابت من صدره زفرة حارة: ترى هل يخبئ له الحظ السعيد امرأة كهذه؟ نعم لابد أن تكون كهذه، هذا النمط بالذات هو حلمى الأزلى، ولسوف يعطيها ذراعه لتتأبطه هكذا، سيمضى بها إلى كل مكان فى المدينة يفرجها على المسارح والملاهى والسينمات، من ساعة الأصيل حتى بعد منتصف الليل، ليعود بها إلى البيت ممتلئين بالنشوة

والصفاء، سيدّخر كل شوقه للحظة الوصول إلى البيت، عندئذ يحتويها فى حضنه تاركاً بدنه يذوب فى هذا الجذع الطويل، يقودها إلى غرفة النوم ليخلع ثيابها قطعة فقطعة على مهل شديد ربما على امتداد الليل كله، فيتعانق ضوء الجسد الناصع مع ضوء الفجر الساطع. يجب أن يكون البيت جميلاً مثلها. لسوف يبذل كل ما فى طوقه من جهد ليحصل على شقة فى عمارة محترمة مكونة من ثلاث غرف وردهة كبيرة، الأنتريه فى المدخل قرب الباب مباشرة، فى نهاية الردهة ترابيزة السفرة والبوفيه ودولاب الفضيات الزجاجى، غرفة للصالون، غرفة للنوم، غرفة للطفل مع الخادمة، نعم يجب أن يكون لديه خادمة تُعنى بالطفل وتشترى الخضروات من السوق وتجنب زوجه مشقة العمل لتظل دائما أبداً نظيفة مشرقة مُهيأة، يستحسن أن يجلب هذه الخادمة من بلدتهم، يا حبذا لو كانت امرأة ريفية عاقلة. يستيقظ هو يوم الجمعة فيجد أشعة الشمس تصافح البراويز فوق الحوائط، نعم يجب أن يكون ثمة براويز تحتوى على لوحات وصور، وتكون الستائر قد انزاحت على الجانبين. لابد طبعا أن تكون ثمة ستائر مخملية. من الأفضل أن يكون هناك ستائر بيضاء رقيقة وأخرى مخملية ثقيلة فوقها. لسوف يدخر جيداً، لسوف تكون زوجه هذه مديرة وخبيره بمثل هذه الأشياء

الضرورية، فهى لا شك من عائلة مستريحة ومن بيت يعرف الستائر والسجاجيد. لابد أيضا أن يكون عنده روب دى شامبر يلبسه فوق البيجامة المتسقة المخططة ذات الياقة والأساور الحابكة. لن يسمح بإقامة عرسه إلا بعد أن يستكمل هذه الملبوسات الداخلية، وخاصة هذا الروب دى شامبر، ما أجمل أن يلف حزامه حول خصره ويجلس فى الردهة تحت أشعة الشمس يقرأ الجرنان مع فنجان قهوة وسيجارة يأتنس بصوت زوجه فى المطبخ تشرف على اعداد وجبة الغداء: خضار باللحم والأرز والسلاطة الخضراء. المطبخ طبعا لابد أن يكون فيه موقد بالبوتاجاز، وثلاجة ثمانية أقدام، وفى الحمام غسالة كهربائية وبانيو وحيطانه بالقيشانى. ليفعل مثلما فعل زملاءه، يشترى كل ذلك بالتقسيط من شركة إيديال. لقد تخرج فى الجامعة وحصل على بكالوريوس تجارة وأصبح موظفاً حكومياً محترماً يثق فيه أصحاب المحلات. نعم! نعم سيفعل كل هذا بعون الله، ولكن متى يحين الحين؟ كل شىء بأوان، فليصبر قليلاً كما صبر طويلا..

وكان يشعر أن هناك امرأة تسير خلفه عن عمد، تحاذيه أحيانا يفصلها الزحام عنه معظم الأحيان. كان يبدو عليه كأنه يعرف أن امرأة تلهث وراءه حتى لا يتوه منها. كذلك كان يشعر

فى أعماقه البعيده بأنه وحيد، وحيد، وحيد، كما يشعر بأنه يكاد يكون راضيا بهذه الوحدة رغم وحشتها وقسوتها. لكنه فوجئ بمن يقبض على ذراعه فى عنف وصفاقة، فارتعد، كأن برميلاً من الماء البارد اندلق فوقه فجأة، فشهق مرتعباً ثم تسعر من فرط الذهول: كيف جرؤت هذه المرأة الصفيقة على الإمساك به هكذا وجرّه كأنه طفل بائس تقوده أم تعيسه قاسية؟ ها هى ذى تسحبه بغلظة وفظاظة نحو محطة الأتوبيس فى ميدان التحرير بنفس الفلظة والخشونة والسأم تدفعه إلى سلم الأتوبيس المكتظ بحشود من الكتل البشرية المنضغطة فى بعضها كأكوام القمامة برائحة تزكم الأنوف..

تبيّن من خلال الضباب المتراكم فوق نافوخه أن عليه أن يشبط فى سلم الأتوبيس الموشك على التحرك، وأن عليه أن يبادر بدفع هذه المرأة أولاً. صارت الكرة الأرضية تميل يمنة ويسرة فيما يتحرك الأتوبيس مخترقا ميدان التحرير إلى شارع رمسيس وسط ضباب رمادى يتخلله ضوء شاحب منبعث من عواميد متباعدة. ما أن استقام الأتوبيس على الطريق متخذاً سرعته القصوى رغم شدة زحام الشارع حتى بدأ يتبين شيئا فشيئا أنه عائد إلى حجرة وضيعة يسكنها فى بيت عتيق فى عزبة المرج خارج حدود القاهرة. ثم دهمه ذهول مفاجئ حينما

تبين أن هذه المرأة التى تحمل على صدرها طفلاً مريضاً مرمدّ العينين هى زوجه، وأنه كان فى صحبتها بالطفل إلى عيادة الوحدة الصحية التابعة لشغله. ماتت يده القابضة على القضيب الحديدى ليحتمل الكتل البشرية التى جثمت فوق صدره بفعل ميل الأتوبيس أثناء تفاديه السريع لسيارة مقابلة، ثم ما لبث حتى استعاد توازنه فيما يفوص الأتوبيس فى أحشاء عتمة كالحة.

بذلة الآخر

لم أكن رأيتـه سـوى مرات قليلة جدا، لا تكفى لأن يتعـاطف معى إلى هذا الحـد. لكننى عـزوت رقته ودفـء عـواطفـه إلى نبل متأصل فيه، يتسق مع هذه الأناقة المفرطة تشمله من تصفيف الشعر عند الكوافير لابد، إلى الحذاء اللميع ذى الثمن الخرافى الذى أصبحنا نسمع عنه في هذه الأيام من عقد التسعينات. أما البـذلة الجـديدة من الصـوف المـعـتـبـر، والقـمـيص الحـريرى الشـفـاف، والصـديرى، ورباط العنق الذى يقـال إنه من مـاركـة تسمى بيير كاودان، والنظارة الريبـان الخضـراء، وعلبة السجائر الذهبية الملحق بها قداحـة، وسجـائر الروثمـان السخنة، والخـاتم الذهبى ذو الفص العقـيق الأحمـر فى بنصـره الأيسر.. أمـا كل ذلك فمثال للأناقة والفخامة.

المرات القليلة التى قابلته فيها كانت كلها فى مكتب صديقى الحميم الناقد التقدمى سليمـان ابو الفتوح، الذى كـان إلى وقت قريب جدا يخرج من السجن ليدخل المعتقل، ليعود إلى السجن بعد حين. هو ذو ثقافة عـالية إلا أنه يعمل موظفا فى حسابات شركة مصـر للتـأمين. كعـادته دائما لم يعطنى فكرة عن ضـيفه، إكتفى بتـقـديمه لى قـائلا: «عـادل ابو حـشيش!»، وبتـقـديمى له قـائلا: «مـحـمـود مـصطفى!». بدورى كـالعـادة أيضـا - لم أعن بمعرفة المزيد، ولا بتعرف المزيد، لكننى توقعت أن يكون عـادل

ابوحشيش زميلا لصديقى فى تنظيمه اليسارى كانت اكتسبت أعضاء كثيرين من أبناء البيوتات العريقة والباشوات. إلا أننى احترمه لأول وهلة، لاتزانه، وسلوكه المتعفف، وشكله المهيب، ومظهر البذخ الرشيد الواضح، وكلامه الملء بالأفكار النيرة.

فى اللقاء الثانى سلم على بحرارة قائلا فى بساطة آسرة: «أهلا محمود!». وفى اللقاء الثالث تبادل معى حواراً خاطفا حول القراءة والأدب هوايته القديمة الحميمة التى هجرها مضطرا إلى دنيا الأعمال الحرة والمكاسب المجزية إذ أنه اقتنع أن الأدب فى بلادنا لا يكفل الكفاف لمبدعيه.

فى اللقاء الرابع نزل معى. على استحياء شديد عزمنى على كوب من البيرة فى مقهى ريش التى بقيت له من ذكريات الكتابة والقراءة. كنا فى عز طوبة والبرد قارص نذل، ثيابى رثة حقيرة مجرد قميص وسروال أتحرك داخلها بصعوبة، وقد حال لونها، فضلا عن الترهل والجعبية.

- «فى صحتك!»

- «فى صحتك!»

كأس فالثانية فالثالثة قال بقليل من الحرج:

- «ألست بردانا؟!»

- «ها أنت ذا ترانى أنتفض من البرد!»

طلقت فى ععينيه الذكيتين شرارة تكاد تنطق قائلة إنه فى كل

المرات التى التقانى فيها لم أغير هذا القميص وهذا السروال يعنى ليس عندى غيرهما. لكنه قال:

- «إسمع! أنا أخوك ولا مجال للخجل بيننا!!»

- «طبعا! أنا فعلا إتفتح قلبى لك!»

- «إذن فسأشكرك لو قابلتنى فى مثل هذا الوقت غدا لنشرب كوبين من البيرة! أنت عودك هو نفس عودى! عندى لك بذلة أكثر من فاخرة لم أضعها على جسدى لأن لونها مكرر عندى على أذواق أجمل فى نظرى! أنا مصاب بحب الجديد دائما! وعندى الكثير والحمد لله فضلة خيرك!! وللعلم هى مستوردة وثمينة جدا ولا يوجد مثلها فى محلات مصر! أرجو أن تقبلها منى عربون المحبة والأخوة!!»

- «لا بأس على الإطلاق! أنا فعلا محتاج لهدمة تدفئنى فى هذا الصقيع الجبان!!»

أنتهى الحوار واستمر الشرب. قلت لنفسى إنه مجرد كلام ناتج عن نشوة الشرب التى إما أن ترفق الشارب أو تزيده وحشية حسب ما يعتمل فى داخله. نويت ألا أجئ غدا.

لكننى فى اليوم التالى رأيتنى قد جئت بالفعل. وعندما ضبطت نفسى متلبسا بالمجئ بررت مجيئى بأن هذا المقهى مأوانا الدائم فأنا أجئ إليه كل يوم لمجرد المجئ، بموعد أو على غير موعد، سواء طلبت مشروبا أو لم أطلب، فدائما أبدا هناك

جالس أنتمى إليه عند الشرب. لدهشتى فوجئت به يدخل المقهى حاملا حقيبة من البلاستيك كبيرة أنيقة منتفخة. تهلل وجهه حين لمحنى من بعيد، إنحاز لترابيزة فى مدخل الباب فجلس إليها مشيرا برأسه أن أجيء. ما كدت أسلم عليه وأجلس حتى سلمنى الحقيبة قائلا ببسمة خجولة:

- «هدية متواضعة!».

شكرته بعمق فى نصف كلمة عجزت عن إتمامها. بعد زجاجتين من البيرة سلم على وانصرف. بقيت وحدى تتلاطم بى الأفكار: ترى ما هدفه؟ هل يريد أن يجندنى؟ لم يعد مثل هذا الكلام موجودا بعد أن أصبح كل شيء فى النور. أيكون مصابا بالشذوذ ينوى ابتزازى بشكل ما؟ لا أظن، فشكله وكلامه محترمان للغاية كابن ناس طيبين حقا.

عدت إلى مسكنى فى لوكاندة العلم المصرى بشارع كلوت بك. فتحت الحقيبة. يا للروعه، بذلة جديدة فاخرة تماماً، رائحة القماش فائحة سخية، قميص حريرى شفاف، رباط عنق ثمين، حذاء أثمن، جورب. هذا لغز، فلو أننى أردت شراء هذا الطاقم لوجب أن أشتغل ثلاثة أعوام كاملة بمرتب كبير فى الحكومة يذهب كله إلى المحل ولا يكفى ثمنا للبذلة وحدها. العجيب أنى استخسرتها فى جسدى الخشن الذى لم يألف مثل هذه الفخامة. ركنتها بلفتها حتى أتبين ماذا يهدف هذ الشخص من

وراء نوبة الكرم هذه.

غير أن الشخص اختفى تماما، حتى كاد الشتاء أن ينصرم. ذهبت لصديقى مرات عديدة دون أن أراه. إنتظرت أن يفتح لى سيرة صاحبنا فلم يفعل. إضطررت لسؤاله ذات يوم:

– «ألم تعد ترى صديقك هذا المدعو عادل؟!»

– «عادل من ؟!»

– «عادل ابوحشيش!»

– «من يكون عادل ابو حشيش هذا؟!»

– «ذلك الولد الأنيق الثرى! الذى أعطا... الذى قدمته لى هنا فى مكتبك ذات يوم قريب!»

أجهد ذهنه ليتذكره. أخيرا صاح:

– «يا..ه! آه! منذ مدة طويلة لم أراه! هو ليس صديقى بالمناسبة! هو معرفة أحد زملائى فى هذا المكتب وقد نُقل إلى بلدته أسوان!! ولكن لماذا تسأل عنه؟!»

– «أبدا! إنه ولد لطيف!!»

فلم يعلق، وبدا أنه لا يعرفه جيدا ولا تعنيه أخباره، فلم أفاتحه فى سيرته بعد ذلك. وكان البرد قد توغل فى عظامى، والقميص والسروال أصبحا لا يصلحان حتى كممسحة. ونظر لى موظف اللوكاندة فى استرابة قائلا:

– «كيف ترضى بهذا العرى فى هذا البرد وعندك مثل هذه

الملابس الثمينة؟! هل تدخرها للزواج؟!»

- «زواج!؟ قل إن نفسى مصدودة!!»

- «يا رجل كبر مخك! ستموت من البرد!!»

تركته ودخلت الحمام فاستحممت جيدا. رميت بالقميص والسروال والحذاء المبرطش فى عربة القمامة المثبته تحت جدار اللوكاندة. لبست الطاقم كله ونزلت. طالعنى شكلى فى مرآة السلم فكدت أقع مغشيا على من الخضة. لقد تغير شكلى تماما، صرت باشا، لا أقل من نجم سينمائى. رفع موظف اللوكاندة حاجبيه من الدهشة، أطلق صفيرا، صاح بلهجة حرت فى تفسير وفهم معناها:

- «بذلة سُقع! من أين أوقعت بها؟ إنها ثمينة تقبل الرهن!»

فلم أعلق. مضيت فى الشارع لا أعرف إلى أين أذهب، فليس فى جيبى مليم واحد. تجنب المرور على المقهى ريش حتى لا يرانى أحد. أول شئ داعب غرورى هو أن أذهب إلى بعض الأماكن التى طالما تمنيت الذهاب إليها على سنجة عشرة من الوجاهة والنظافة مثل جميع روادها، المسرح مثلا، السينما، الندوة الثقافية. حودت على سينما مترو، لا لشئ إلا لأمارس منظرا راقنى كثيرا: أضع يدى فى جيبى السروال، وأجول بين الأفيشات والصور المعلقة أتفرج عليها. فى أول الجولة فوجئت بيد تربت على مؤخرتى فى حركة بذيئة خفية. إنتفضت فزعا،

تلفت خلفى، رأيت شابا نحيلا طويل القامة مبتذل الملامح، غاضت الدماء في وجهه، برعب شديد جعل يربت على كتفى فى اعتذار:

– «آسف! آسف! ظننتك شخصا أعرفه!!»

ثم حيانى فى خجل وارتباك، واختفى فى الزحام.

لعنت جمهور السينما كله ومضيت. ذهبت إلى مسرح الأزبكيه. أثناء مرورى على سور الأزبكية سمعت من يهتف من ورائى: «حازم بك! حازم بك!»، وصوت خطوات يهرول خلفى، ثم إذا بأحد معلمى بيع الكتب يواجهنى مبتسما:

– «حضرتك فين من زمان يا بيه؟ أنا أحضرت مجموعة المقتطف التى طلبتها منى!!»

– «أنا لم أطلب منك شيئا!!»

تفرس فى ملامحى:

– «حضرتك حازم بك؟!»

– «لا!»

فنظر لى فى كثير من الشك، ثم انصرف ممتعضا، دون أن يجيبنى.

دخلت ساحة المسرح القومى متمنيا أن أعثرعلى أحد من الممثلين أو موظفى المسرح ممن أعرفهم ليدخلنى العرض بالمجان كما يحدث أحيانا. لكننى لقيت رجلا شديد الاحترام

مهيب الهيئة يقف فى مواجهتى فاتحا أحضانه هاتفا:

- «يا هلا يا هلا! رب صدفة! تحب الليلة أن تأخذ تارك منى؟! إذن فنخرج من المسرح إلى النادى! أنا الليلة نفسى مفتوحة للعب وجيبى عمران وتستطيع أن تسترد منى كل ما أخذته منك على الترابيزة فى آخر مرة! كانت منذ ثلاث أشهر تقريبا على ما أظن أنك المرة الأولى والأخيرة لم أرك قبلها ولا بعدها لكنى أشهد أنك حريف لكنك سئ الحظ! من يدرى؟ لعل الحظ يخدمك الليلة خصوصا أن بنتا جديدة محل البنت التى نحَستك ليلتها!!»

إبتسمت قائلا إنه غلطان، وإننى لم ألعب القمار فى حياتى، ولم أتردد على أى ناد باستثناء نادى القصة. فبدت عليه الصدمة وراح يتأمل ثيابى فى تشكك، ثم تأسف وأعطانى ظهره. وقفت بحزاء مدخل الكواليس لألتقط أى ممثل داخل، فلاحظت أن رجلا ذا وجه مرح يتفرس فى ملامحى بتركيز شديد لافت للنظر. أخيرا اقترب منى فى شىء من الود المشوب بالحذر:

- «مساء الخير! حضرتك تعرف الأستاذ عادل البدرى؟!»

ترددت قليلا:

- «أعرف عادل فقط أما البدرى فلا!»

- «ألست قريبا له إذن؟ صديق مثلا؟!»

- «لا مع الأسف!»

قال كأنه يعتذر عن تطفله وعن إنكارى:

- «إنه ولد جدع! رجل بمعنى الكلمة! لتيك عرفته إذن لكسبت صديقا يعتمد عليه وقت الشدة! منذ مدة طويلة لم أراه! لكن! الله يخلق من الشبه أربعين! أقصد أشباه البذلات لا أشباه الرجال!!»

أغاظنى، حولت بصرى عنه فى عدم اهتمام، فتركنى وانصرف. ثم انفتح باب الدخول فتوافدت عليه الجموع حتى فرغت الساحة إلا منى. فجأة صار المكان فقرا موحشا. ثم سمعت دقات خشبة المسرح فى الداخل تتوالى كالنذير، فقفلت عائدا إلى شارع سليمان فى وسط المدينة. سئمت، تعبت، شعرت بالجوع، بضرورة أن أمر على المقهى لأستريح وهناك أمل كبير أن أجد من يطلب لي كوب شاى أبتلع به ذهبت إلى قهوة زهرة البستان.

فى المقهى قوبلت بزفة هائلة. أنكرنى الجميع. جاء الجرسون فطلب الجميع لأنفسهم ما عداى، فرمقنى الجرسون بنظرة غير مريحة تجرعتها على مضض. داهمتنى كآبة قاتلة، شعرت إلى ذلك أن البذلة تكتفنى، أخشى أن أرتكن بكوعى على الترابيزة الملوثة، أبتعد كلما اهتزت الأكواب على الترابيزة. بعد برهة وجيزة دخل القاص النوبى إبراهيم، فتجهم الوجه ممسكا بباكو دخان معسل. جلس دون أن ينتبه لى، ثم لما اعتدل فى جلسته

وقع بصره عليَّ، فراح يتفحصني مضيقا ما بين حاجبيه فى تركيز، فلما تبينني قام وسلم عليَّ فى حرارة، ذلك أنه لم يكن رآنى منذ حوالى أسبوعين. ثم لاحظت أنه يتابعني بنظرات قلقة شغوفة توحي بأنه يتحين الفرصة للإنفراد بى. صدق حدسى، فما كاد آخر واحد ينصرف حتى انتقل هو إلى جوارى. أخذت أدبر للإيقاع به كى يطلب لى كوب شاى على حسابه، لكننى فوجئت به يميل على أذنى هامسا فى تهدج ينضح مسكنة وإرهاقا ومودة:

– «شف لي معك جنيهات سلف! لى قصة منشورة فى مجلة إبداع منذ ثلاثة أعداد وسوف أقبض مكافأتها بعد يومين! الكشف تم توقيعه بالفعل!!»

لم أجد كلمة واحدة أقولها، فضحكت، لذت بالصمت. رأيت أن الأنصراف قد وجب، والليل قد صهل فى الشوارع. سلمت على إبراهيم ومشيت بلا وجهة محددة.

فى باب اللوق شعرت بخطواط تهرول خلفى، ويد تقبض على كتفى بقسوة. إلتفت مذعورا: رجل قوى بالغ الضخامة موفور الصحة ينتفض من اللهاث والغضب، يتطاير الشرر الأحمر من عينيه:

– «قفشتك يا نصاب يا حرامي! أنا تفعل معى هكذا؟! جزائى أن وثقت فيك وآمنتك! ليلتك سوداء بإذن الله!!»

– «حضرتك غلطان! هناك سوء تفاهم!»

– «أربع سنوات وأنا أبحث عنك! ضاعت ملامحك من ذاكرتى ولم يبق إلا هذه البذلة التى أرشدتك إلى محلها واشتريناها معا! كان ذلك فى مدينة الرياض فى الشتاء الماضى! أوهمتنى أنك رجل أعمال! فسلمتك أربعمائة دولار كى توصلهما لأخى فى القاهرة فلم تفعل!! أريد الآن أربعمائة دولار فورا!!»

– «يا عم! يا حضرة! والله ما هو أنا! ثم إنى لم أخرج من مصر طول عمرى ولم أعرف شكل مدينة الرياض هذه! ما اسم الشخص الذى تقصده؟!»

– «إسمه كامل! ربما شامل! الورقة عندى فى البيت على كل حال فيها الاسم والعنوان الذى قلته لى! وطبعا قلت لى أى اسم وأى عنوان! معك بطاقة شخصية؟!»

– «لا مع الأسف! ضاعت ولكنى أحفظ بياناتها!!»

– «ها!ضاعت! سأفتشك! كل ما أجده معك سآخذه!»

ونفذ التفتيش فى الحال، فاستسلمت له. وضع يديه فى كل جيوبى، شد فتحة الصدر ونظر فى الماركة الأجنبية الملصقة فوق الجيب الداخلى للسترة ثم صاح:

– «هى نفس البدلة! أنا الذى انتقيتها واخترت لونها وعندى أختها! بالأمارة لم تكن مستريحا لهذا اللون وأنا أقنعتك بشياكته!!»

ثم شوح بذراعيه فى يأس وقد ضوعف شكه:

- «لا بطاقة شخصية ولا ورقة واحدة تثبت شخصيتك! لا نقود ولا أى شئ فى جيبك؟ أنت إذن محتال! فمن يلبس مثل هذه البذلة وهذا الحذاء لابد أن يكون جيبه عمران! على كل حال البذلة وحدها تساوى الأربعمائة دولار على حالتها هذه! أنت نصاب كما توقعت فلا تتمسكن فلن آكل من هذا الكلام!!»

- «يا حضرة! أحلف لك على المصحف الشريف ما هو أنا! ولست أعرف شيئا عن الموضوع الذى تتكلم فيه!!»

- «إذن فقل هذا فى قسم الشرطة!!»

جذبنى من ذراعى بعنف حتى كدت أنكفئ على وجهى. فى الطريق إلى قسم الشرطة فكرت أن أعترف له بأن أحدهم قد عطف على حالى فأهدانى هذا الطاقم كله، لكننى أحجمت عن ذلك فى الحال، وإلا فأنا مطالب بأن أدله على هذا الشخص فى حين أن هذا الشخص أختفى ولا أعرف عنه أى شئ على الإطلاق.

فى قسم الشرطة حكى الرجل الحكاية بالتفصيل من أولها إلى آخرها، وأكد أن الورقة المكتوبة بخطى باسمى وعنوانى وإقرارى بأنى سأوصل الأربعمائة دولار لأخيه فى القاهرة موجودة عنده وسيأتى بها. قال ضابط المباحث:

- «معك بطاقة شخصية؟!»

تلعثمت. قال الرجل:

- «ليس معه أى شئ! كان يبحث عن صيد فى أول الليل عندما أمسكت به وهو يبدأ سرحته!!»

رمقنى الضابط بنظرة هازأة شملتنى من الرأس إلى القدمين، وانتظر برهة وجيزة. ويبدو أنه رأى دموع العجز فى عينى، فهز رأسه فى ابتسامة صفراء تفيض سخرية واحتقارا، ثم صاح فى المخبر الواقف بجواره فى لهجة آمرة صارمة:

- «ضعه فى الحجز! أنا متأكد أن وراءه بلاوى متلتلة!»

جذبنى المخبر من ذراعى. نزلنا إلى الطابق الأرضى. فتح باب الحجز الحديدى الكئيب، دفع بى فى جوف الظلام ثم أغلق الباب بالمفتاح. صرت أتحسس الظلام بيدى وقدمى، ولم يكن يشغل ذهنى لحظتها - من عجب - سوى أننى منذ ساعات قليلة كنت أشفق على البذلة الفخيمة من جسدى ومن وسخ الترابيزة فى المقهى، والآن سوف أضطر للنوم فوق أرض قذرة عارية.

حصاد البؤس

يبدأ الموسم عادة بأن يضمحل الركود في القرية شيئا فشيئا وعلى مدى أيام طويلة مفعمة بالدفء والعذوبة والترقب، تستيقظ فى الأخلية والأبدان كل الآمال والأمنيات المؤجلة ربما من سنوات بعيدة حيث يتجدد حضورها فى كل موسم: فغداً أو بعد غد تتم دخلة البنت «رتيبة» بنت الجيران على خطيبها «عنتر» من شرقي البلد.. وتتم خطوبة «فايقه» بنت الصرفانى للولد محمود ابن عمها، وفى حفل الخطوبة يُختن أخوها الصغير.. ويتم بناء الجدران المائلة فى الدور.. ويذهب عوضين - العيان بكفيه كما يسمونه فى نواحينا - إلى حكيم البندر ويقول له بكل جرأة: «معاك من جنيه لعائة لتزيل عنى تضخم الطحال!».. ويرتدى الشبان - بعد لأى- جلابيب من الصوف والكشمير تشبها بالكبار.. وترتفع مصاريف حسن طالب الإبتدائية الوحيد في عائلتنا وتُشترى له بدلة جديدة وربما طربوش وحذاء جديدين..

كل ذلك يستيقظ فى كل الأفئدة، كبيرة كانت أو صغيرة، حتى أولئك الذين لم تكن لهم في الأصل أمنيات، تنبت لهم آمال مفاجئة يخلقها مناخ الأمنيات الآخذ فى الشيوع على مدى بضعة شهور قبل أن تنبت بذرة القطن الخضراء في أراضي بلدتنا المترامية الحدود. فالجميع طوال العام لم يكونوا يسمعون

سوى كلمة واحدة كجواب على أى طلب يطلبونه: «أمَّا نجمع القطن وعليك خير!». وكل أمنية وشيكة التحقيق لا يقف فى زورها سوى كلمة: «أمَّا نبيع!»، وحينئذ يشتد خفق القلوب، إذ كثيرا ما يحدث الجمع ثم البيع دون أن يتحقق شىء كثير مما هاجت به الأفئدة، ذلك أن الجنيهات التى يقبضونها عند البيع لا تكاد تبلغ الدار حتى تكون فقدت فى مشتريات حدثت منذ عام مضى..

مع ذلك تنتعش الحياة فى بلدتنا انتعاشا كبيرا. تزول الخشونة والفظاظة من سلوك البقالين والخياطين وتجار الحبوب والجزمجية. يتحول الجميع فجأة إلى رجال تملؤهم الشهامة ويفيض منهم الود، حتى ليثق فيك - فجأة - ناس ماكانوا من قبل يمنحونك هذا الشرف أبدا. يصدقك البائع إن قلت له - وأنت تشترى باكو دخان شكك على الحساب - إنك سوف تحاسبه بعد يوم السوق المقبل. وإذا ميلت على الحاج عمران تاجر الحبوب والأقطان وطلبت منه مبلغا على سبيل القرض الحسن فإنك تكون واثقا أنه سيعطيك دون تخفيض أو مماحكة. ليس عبيطا، هو يعرف أنك بارع فى جمع القطن أو حتى سرقته على أى مستوى، وأنك سوف لن تبيع فى نهاية المطاف إلا له هو، فبما أنه الغول الذى يبتلع قطن الجميع بالتسليف الفورى المستمر، فأنت تجد من الحصافة البيع له حتى لا يكون هناك

وسيط يأخذ منك فرق السعر كمكسب له. يسرح بأموال سباع وذئاب وثعالب ينتشرون فى الأسواق فى القرى المجاورة، وعلى شطآن المصارف ومفارق الطرق، لاصطياد العائدين من الحقول، والراغبين فى التخلص مما معهم سرا وبدون شوشرة..

الجميع يشترى ود الجميع على نطاق واسع جدا، يصبح للصياع والبلطجية سعرا وأى سعر، فمن ورائهم تجئ صفقات مدهشة، ويستفيد من يستعين بهم أيما فائدة..

يصبح منظر شارعنا جميلا غاية الجمال. من بعد صلاة العصر مباشرة يزدهى الشارع، يمتلئ بالألوان المدهشة، التى تتفرع كلها من - وتصب فى لون القطن، حيث تحولت معظم المصاطب الممتدة أمام الدور إلى مفارش من الحصير الملون أو الأجولة المفرودة، والأرض أمامها مفروشة لمسافات طويلة تتقارب تتلاحم بحدود رش المصاطب المجاورة. على كل مصطبة يجلس ولد ومعه معاون له أو أكثر من إخوته أو رفاقه أو ذويه. قد يبدو صبيا صغيرا، ولكن تفرج عليه بعد برهة، لا تندهش إذا دب يده فى جيب الصديرى كالرجال ليخرج منه منديلا محلاويا أو كيسا مطويا على حوالى ثلاثة كيلو جرامات نقود سائبة من الفضة والبرونز والورق. ليس المهم بفلوس من يتاجر هذا الصبى أو ذاك، لكن المهم أن المهرجان طيب وجميل

بل وساحر..

إن هي إلا دقائق وتبدأ أسراب الصبايا تتوافد تتواثب مَثْنى مَثْنى ثلاثاً ثلاثاً أربعاً أربعاً. كلهن معروفات للجميع، فالكل يعرف الكل، جيل الشيوخ ملم بجيل الصبيان إلى حد المزاح معا كأنهم أنداد، يحلو للشيخ أن يوهم الصبيان بأنهم أنداده حتى يظفر من ورائهم بطائل من الأخبار أو الحكاوى الطريفة، أو يظفروا منه بشئ من التجربة أو حتى بسخرية يستعيدونها فيما بعد باشتياق..

على واحد من هذه المفارش يجلس «عبد الحسيب» يثقب بعينيه سربا من صبايا قادمات من حوادية العكاشيه يدبر لاصطيادهم بالحيلة المناسبة. هو يعرف أن الجميع في هذه الأيام يبيع، وليس من أحد يسأل: من أين جئ بهذا القطن؟ فالمهم أن الذى سيباع موجود وبكثرة. من جمع قطنا من أرضه التى يملكها أو يستأجرها أو يعمل أجيرا فيها فإنه يتعجل ذوق طعم الفلوس بمجرد وصول القطن من الحقل إلى الدار، يريد أن يشترى شيئا حلوا يأكله، لا بأس من أن يبيع ملء قفة أو أكثر يصطبر بثمنها ريثما يجمع الأرض جمعتين أو ثلاثة ليبيع على مهلة البيع الأكبر. وثمة أنفار لا يملكون أرضا لكنهم يبيعون أيضا، فمالى أنا لكى أسأله من أين جئت بهذا القطن يا ولد؟ مالى أنا؟ أليس من المحتمل أن يكون منوبا عن أحد فى البيع

فحسب؟ ربما، فمن أدرى أى رجل من رجال البلدة أن زوجه انتهزت فرصة خروجه وأرسلت الولد فلان التملى أو البنت فلانة الخدامة وقالت له أولها: «روح بيع الشوية القطن دول فى السر وتعال!»..

إذن فأنا جاهز. هكذا يعلن «عبد الحسيب» أو أى صاحب فرش، أيصح أن تفلت منه الفريسة وهو أول من يقابلها عند حودتها من الناصية؟ إن هذا ما لا يصح من عبد الحسيب أبدا، إنه عبد الحسيب الشيخ والأجر على الله. ها هو ذا يصيح بلهجة ثعلبية سافرة يبسم لها ويلعب حاجبيه الجميلين فتتراقص كل ملامح وجهه الأبيض المستطيل تحت طاقية مشغولة من الصوف السمنى اللون، وتبرز أسنانه المتسقة الكبيرة بعض الشئ المفلوجة من أمام فلجا يصنع بين شفتيه صليبا وهميا لطيفا:

– «إتفضلوا! أهلا أهلا! تعالى يا سميرة! تعالى يا سمورة!»

هكذا يشرع فى استقبال سميرة ومن معها من الصبايا، معطيا إياها فوق ما تستحق من التدليع والحفاوة والود، هو الذى إن قابلها بعد ذلك أو قبل ذلك فلربما زغدها بكوعه فى غيظ أو سب لها ديك الكفرة. سميرة نفسها - شأن من هن على شاكلتها - تعرف عبد الحسيب الشيخ حق المعرفة وتعرف أنه يتملقها ويكاد يذوب فى هواها، ومع ذلك لا تقدر على إخفاء

الزهو والإختيال، فإذا هى تتأود فى عياقة يحسدها عليها الناس المبسوطون، كأنما العياقة خلقت لبناتهم فحسب. ولذلك فسرعان ما يلوون شفاههم فى قرف، وفى همس ينعتونها بأقبح الأوصاف وأشنع الرذائل فيما هم يتابعونها من تحت إلى تحت: بنت الكلب ترفع ذراعيها لسند القفة على رأسها فيستطيل خصرها ويرتفع صدرها آخذا أهبته الكاملة للمبارزة متحديا فروسية الفرسان، تتوسط منطقة الخصر دائرة السر، أو السرة، كالعجين الخمران كالقمر كالرغيف كمين أغلقت على سر غامض وقدر لها أن تفتن البصر.. اللعنة عليك وعلى من رباك. تستدير لتنزل القفة عن رأسها فتستقر كل العيون على العجيزة، تكوينها البديع يتحدى ذلك الثوب المتسع رغم احتشامة الفقر فيه وهى فتاة..اللعنة عليك وعلى من رباك، تقولها حتى النساء الواقفات حواليها فى انتظار دورهن ابتغاء البيع، كأن الذى رباها مسؤل عن خرطها هذه الخرطة الساحرة وهذا التكوين الإلهى البديع..

– «يا خلق! فلتحتشموا! ضعوا فى عيونكم حصوة ملح!!»

بهذا القول الهامس اللعوب يبحلق عبد الحسيب الشيخ فيمن يلمح فى عينيه كذا أوكذا. يقوله حتى على سبيل الغزل بدوره، ثم يستطرد معلقا كأنما ليعتذر بلباقة، شأن فصحاء المسجد ومنادر الإنتخابات:

- «انتم هكذا تسبون الله شخصيا والعياذ بالله!
أليست هذه السنيورة خلقة الله؟! كاذا تطلبون
احتشاما أكثر من هذا؟! بحق جاه النبى؟! لكن!
دعك منهم يا حلوة! أنزلى القفة! أودعيها
لى أنا! نعم هكذا!»

وبأسرع من البرق تكون يداه قد أنشبتا الأظافر فى كومة القطن وقلبته من القاع إلى أعلى مرورا بالقلب وما حوله، عدة مرات. هو من النظرة الأولى عرف نوع القطن وأدرك أنه من أجود نوع طويل التيلة، إذن فإنه من أرض فلان الفلانى وهذه البنت خادمتهم أو جارتهم أو صديقة أو قريبة. إنما هو يقلب ليعرف، فحسب، هل كل ما تحتويه القفة من نفس النوع أم اختلط بقاعه السكرتو بالكونك بالسكاليريدس؟ أما فقد أطمأن إلى أن القفة كلها من نفس النوع فإن البنت إذن أمينة، وقد جاءت بالقطن من دار فلان إلى هنا مباشرة. يدرك أنها تبعا لذلك سوف ترجع لأهل الدار بما قبضته كله، حينئذ عليه أن يعطيها سعرا يضمن أنها لن تعارضه، لكنه ينزل مقدما عن هذا السعر ست أو سبع درجات كل درجة تنزل نصف قرش فى الرطل. عند ذاك يقترب من الفتاة هامسا بكثير من الود والدفء فى أذنيها:

- «صلى على النبى يا بنت الناس!»

تقول باسمة في طرف شالها الذى استعارته لابد من إحدى بنات الدار صاحبة القطن:

– «ألف صلا عليه!»

يخافت من صوته كأنما سيذيع سرا خطيرا:

– «عشان خاطر عيونك انت بس! أنا أعرف البئر وغطاه! كلنا شقيانين فى سبيل لقمة العيش! سأعطيك خمسة ونصفا!»

تعرف أنها ستتقاضى، تبعا لعرضه، خمسة قروش ونصف عن كل رطل مما فى هذه القفة. وسواء كان ذلك كثيرا أم قليلا فإنها لابد أن تتشكك، ولابد أن تشيح بوجهها بعيدا فى حيرة وإن احتفظت بابتسامتها إبقاءا لحبل الفصال. يعاجلها عبد الحسيب:

– «هيه! أزن؟!»

ترد بشئ من الخجل:

– «الوزن ملحوق عليه! المهم كلام البيع والشراء!»

يشوح بذراعه قائلا كأنما فى حسم نهائى:

– «وافقت بسته؟ زن يا ولد!»

ويشير إلى الولد الممسك بالميزان القبانى. تسرع هى فى قليل من الجرأة:

– «حاسب حاسب! قال بسته قال! حدش

شافك النهارده؟!»

تهم برفع القفة عن الأرض. تهبط عينه إلى كومة القطن فى ذعر وتحسر، لكنه سرعان ما يحتقل نظرته فى لا مبالاة مصطنعة، يمعن فى اللآمبالاة أمعانا فى نصب الشراك للفريسة، حتى إذا أيقنت الفريسة أنه غير راغب فيها أقبلت عليه بمحض إرادتها واختيارها. وهكذا يتطوع عبد الحسيب الشيخ بمساعدة الفتاة فى رفع القفة إلى رأسها بكل أريحية وهو فى أعماقه يود لو قلبها على مفرشه غير أنه وهو يحاذى القفة من رأسها يعلقها بين يديه لبرهة، هامسا فى أذنها:

– «وافقت بسته ونصف؟!»

فإن لمح ترددا ينذر بموافقة أسرع بدلق القفة فوق المفرش. وأما إن جُوبه بصدٍ من الملامح متين فإنه يريح القفة على رأسها فى شهامة، فيما يهمس فى أذنيها:

– «أقول لك؟ خذى السبعة وأمرى لله!

أنا صعبان على لفك بالشيلة الثقيلة! ولا

داعى للف بدون نتيجة!»

فإن هى ردعته برمش ساج غير مبال، واستدارت ماضية فإنه يلاحقها بصوته الطروب:

– « خذى سبعة ونصفا!»

فإذا ما استمرت فى مضيها أرسل صوته فى كعبها:

– «إذن فثمانية!»

فإذا لم تتوقف وتستدير عائدة صاح كالمغلوب على أمره:

– «ثمانية ونصف!»

وإذ يتأكد أنها ستستمر في مضيها فإنه يودعها بصيحة الذى انهزم بمزاحه:

– «تعالى فخذى التسعة!»

ثم بسرعة متتالية:

– «تسعة ونصف! عشرة!»

وحينئذ يكون قد اطمأن إلى أنه قد ربط دماغها ربطا محكما، وأن الصفقة عائدة إليه لا محالة، فالسعر الذى ألقى به وراءها لن تبلغه الفتاة بأى حال من الأحوال، إنه مجرد ربط للدماغ فحسب، ستظل الفتاة متمسكة به على الأقل حين لا تجد أزيد منه، وهنا سوف يتعين عليها أن تنهى لفها حول البلدة فى شارع داير الناحية وربما فى حواريها فى طلب السعر الذى سمعته من عبد الحسيب. إلى أن تعود فى النهاية إلى عبد الحسيب فى منتصف المساء قائلة بقليل من الخجل وكثير من إظهار الود المفاجئ:

– «خد يا عم! إوزن!»

ثم تشفع خضوعها قائلة، وهى تعرف أنه يعرف أنها تكذب:

– «والله جاءنى نفس السعر! فقلت إنك أولى

من الغريب! فأنت ابن جهتنا مهما كان!»

حينئذ تفاجأ بأنها أمام شخص آخر تماما غير عبد الحسيب الذى تركته فى مقتبل الأصيل، شخص أنهكه الفصال والمناهدة والمناكفة والتقليب والمساعدة فى الإنزال والمعاونة فى إعادة الرفع أو فى الدلق على المفرش، يتخلل ذلك استخراج لكيس النقود وعدّ أعداد منها وتقديمها، وعراك حول دقة الميزان وبقايا الفكة. يكون مع ذلك قد راها وتأكد من عودتها دون أن ينظرها بعينيه. إنما هو يتعمد إهمالها طويلا حتى تكاد بنفسها تدلق القفة على مفرشه وتمضى. بكل استمتاع هادئ ينهى وقفة مجموعة من الصبيان لا يتعدى ما مع الواحد منهم عن ملء منديل محلاوى.هنا يحق لها أن تحتج على طول وقفتها قائلة:

– «مشينى بقى يا عبد الحسيب!»

لحظتئذ ينظر أليها كأنه يراها لأول مرة، وكأنه لم يعرفها من قبل ولم يسبق له التودد إليها منذ قليل يقول:

– «أيوه.. نعم يا ست الكل! يلزم خدمة؟!»

لو كانت هى صاحبة القطن حقا فإنها لابد أن ترفع القفة فى الحال وتمضى غاضبة لتنقذ البقية الباقية من ماء وجهها، وهذا ما يعرفه عبد الحسيب جيدا، ويعرف أيضا أنها مجرد مندوبة أنيط بها بيع هذه الأمانة الأصلى، لهذا يثق أنها سوف تحتمل كل ألاعيبه تفاديا للرجوع بالصفقة إلى أصحابها فتثير الخيبة

والنكد وربما أنذرت بفضيحة..

تتذرع الفتاة بابتسامتها المرتعشة وهى تهيب به أن يخلصها:

- «يا خويه بلا دلع امال!»

بوجه مشدود الملامح ينحنى على القفة من جديد فيعيد فحصها أكثر مما سبق. وبلهجة حاسمة - فيما يدفع بالقفة نحوها كأنه يأمرها بطريقة خفية أن تحملها وتمضى، يقول:

- «بثمانية!»

ثم لا يزيد مليما واحدا، أو حرفا واحدا،ليقينه التام أن هذا السعر هو أعلى سعر عرض عليها خلال تجوالها فى داير الناحية، أما التجار الفاشون فى الحوارى الجانبية فإنها لا تذهب إليهم لأنهم يشترون قطنا معينا من طائفة معينة، القطن الذى هو عبارة عن نتف منزوعة من أنياب اللوزات الناشفة، أو التى لم تنضج تماما، مما يجعل القطن مشوبا بظلال خضراء كعصيدة أجبيت بالعفن، ومثل هذا القطن لا يجلبه سوى الغلمان الذين يسرحون فى الغيطان لالتقاط البقايا المتناثرة على شطآن الطرقات. وأمثال هؤلاء المشترين يندر أن تقف أمامهم صبية بقفة تمتلئ بقطن صحيح نظيف..

فى الغالب تهم الفتاة برفع القفة من جديد بحركة متطامنة، طمعا فى أن يزيد عبد الحسيب شيئا أى شىء. لكنها حين تنظر

فى وجهه وتراه قد انصرف عنها نهائيا تجد نفسها مضطرة إلى ترك القفة وإزاحتها قائلة: «هات!». فبسرعة متقنة يدلق عبد الحسيب القفة على مفرشه الذى اتسع في سويعات قليلة فصار يضم ثلاث كومات أو أكثر، كل كومة تضم نوعا مختلفا من القطن. يشد كيس النقود من جيب الصديرى ويعدلها نقودها، ثم يتجه إلى الجوال المخصص لجلسته حيث يكرر نفس الحركة التى يفعلها كلما جلس: يمسك براد الشاى من الصينية ويصب منه في الكوب، ويتضح له فى كل مرة أن البراد فارغ، فلا يتذكر من الذى شربه ومتى شربه..

كلما أقبل المساء تهيأت له الكلوبات الساهرة المتناثرة، وتتلألأ مساحات الضوء على أرض البلدة التى لا تشهد الضوء المبهر إلا فى مناسبات قليلة كهذه. يكون سوق البيع والشراء قد وصل إلى أوجه وتنوعت الزبائن، وتباينت الأشكال والأسعار، حيث قد عاد الرجال من الحقول وصلوا العشاء وفكروا فى قرشين لزوم البغددة والسفر إلى مدينة دسوق لدخول «السلما» وأكل الطعمية الساخنة التى لا يمكن أن تكون شبيهة بأم الفلافل فى بلدتنا رغم أنها الخالق الناطق هى..

تخرج كميات لا بأس بها من قفف القطن من مخازن العائلات سرا، أو بمعرفة الشبان الكبار الذين يشعرون بالاستحقاق نظرا للجهود الخارقة التى بذلوها فى سبيل

ابيضاض هذه اللوزات من بذر وعزيق ورى ونقاوة لطغ وجمع، أو بمعرفة النساء الموالسات ضد ضرائرهن..

نحرم على أنفسنا اللعب فى الأجران رغم أننا فى ليالى اللعب نتمني حزمة ضوء واحدة من هذه الحزم المبهجة المنسابة الممتدة من كل مكان فى كل مكان، حتى لتبدو القرية فى عتمة الليل كرسومات من الضوء بين كتل سوداء كثيفة..

يصعب علينا مغادرة منظر الضوء والإنصراف عنه إلى اللعب، فنقضى الوقت نمرح فى شغف بالضوء. يجذبنا المهرجان وهو كبير وحافل. تخلو الأجران كلها من الأولاد، لتراهم أمام مصاطب ومفارش الشراء يبيعون شيئا لهم أولأقاربهم، أو يتطوعون بالمعاونة فى مساعدة المشترى وفض المشاكل وإحباط المعارك التى لابد أن تنشأ بسبب الفصال والأخذ والرد والمناكفة وضيق الخلق..

ما أفكه منظرنا نحن الذين لا ناقة لنا فى الموضوع ولا جمل بدافع الفرح العام وحده ترانا ككذاب الزفة، يبدو علينا الفرح أكثر من أصحاب الفرح، يبدو علينا الحرص الشديد على كل شئ، كأن القطن والأرض أرضنا والأموال ستدخل جيوبنا. نمر على الفيطان فى العصارى بحجة الفسحة على شاطئ الترعة، وفى الواقع لا نكون منجذبين إلا بمنظر القطن يكسو مساحات شاسعة من الأراضى السمراء كخيمة من النجوم

المنتفشة كبساط من القطيفة البيضاء، تتخلله مجموعات من الأنفار محنية على الخطوط، تتبعج كروشهم وجنوبهم، فلقد تحولت جلابيبهم إلى «عبيات»، إذ يرفع النفر ثوبه إلى ما فوق ركبتيه ويتحزم عليه فيصنع في الثوب فراغا متسعا كالكيس، وينحنى فوق شجرة القطن بيدين مدربتين تدريبا هائلا، حيث تروح اليدان تحومان حول الشجرة منقضة بأطراف الأصابع فوق اللوز المنتفخ السايح لتقطفه بسرعة فائقة، صاعدة هابطة متخللة أفرع الحطب الجاف، حتى إذا امتلأت القبضات شيعت حفنات القطن فى «العبية» من فتحة طوق الجلباب. وإذ ينتهى الخط يستدير الأنفار عائدين فى خطوط عكسية مجاورة، وتكون «العبيات» قد امتلأت وجعببت، فيتجهون جميعا في طابور إلى المفرش، وهو عبارة عن حصير كبير أو جولات من الخيش المفرود ينبسط على الأرض، حيث يقف النفر فوقه ويفك حزامه، فينهمر القطن من تحت ثوبه مكونا دائرة حول ساقيه، ثم ينفض نفسه جيدا فوق المفرش، ويمضى ليلحق بخطه الجديد، ليتولى أنفار آخرون - مأجورين أو من أصحاب الأرض - تعبأة ذلك فى أكياس وغرارات تنقلها الجمال والحمير إلى الدور فى البلدة لتُفرَّغ على المصاطب فى القاعات الداخلية. تتحول جميع طرقات الحقول وشوارع البلدة إلى خلية تشغى بالجمال والحمير العائدة أو السارحة، ونتف القطن تتبعثر على الوجوه وتعلق

بالثياب وتختلط بتراب الطرقات والشوارع في كل مكان. أما دور العائلات الكبيرة فإن الحركة فيها لا تهدأ، فإن دخلت دهليز دار من هذه الدور وجدت عددا كبيرا من الأكياس الكبيرة واقفة، يطل من داخل كل كيس رجل فتى أمسك بأطراف الكيس بين يديه وراح يكبس القطن بقدميه، وصبايا الدار يزودونه بالقفف المملوءة بالقطن يدلقنه بين سيقان الرجال في الأكياس وهم يكبسون ويكبسون. تظل قامات الرجال تقترب من السقف، إلى أن تصير الأكياس جامدة صلبة، تنتصب في مدخل الدار كالأبراج العالية. فيخيطونها بالمسلات، ليبدأ فرح الأطفال بعد ذلك مباشرة، إذ يشرعون في تسلق هذه الأكياس بواسطة أمهاتهم أو آبائهم أو بعضهم البعض في صراخ وزئيط وضجيج طوال ما يقرب من شهر. إلى أن يفاجأوا ذات يوم برجل يلبس الجلباب الصوفي والعباءة والطربوش، وخلفه مجموعة رجال في شكل مهيب، لعله القفاص أو الحاج بركات صاحب المحلج الشهير في دمنهور أو لعله أحمد افندى خليفة السمسار، مهمته السرح بأدمغة الفلاحين حتى يعجلوا بالبيع قبل انخفاض الأسعار وسفر الخواجات وقبل أن تحدث في الأمور أمور تستدعي الندم على التراخي في البيع. الفلاحون أمكر منه، فالواحد منهم لابد أن يؤجل البيع حتى يجمع أرضه جَمعه ثانية وربما ثالثة بعد أن يتفتح اللوز السفلي البعيد عن الشمس،

وحتى يتمكن من خلط الجمعة الثانية والثالثة بالجمة الأولى ليختفى الردىء فى أعطاف الجيد وتكثر كمية الجيد. هو يعرف أن السعر لابد أن يأخذ فى الإرتفاع لأن نسبة كبيرة من الفلاحين تمسك عن البيع الفورى، وحينئذ يخطط بعضهم للبيع فى السر خوف الحسد وخشية نشر التشجيع على البيع حتى لا ينخفض السعر. وبعضهم يبيع كمية فى أول الموسم وكمية أخرى فى نهايته. والسمسار لا يكف عن الرواح والمجئ. فإذا ما جاء التاجر ليشترى فإنه يبرز من جيبه خنجرا معقوفا، يغُزّ به الكيس فى أى بقعة يختارها، فيخرج سن الخنجر بنتف من القطن ما أن يراها حتى يعرف نوع القطن وجودته من رداءته. وهكذا يفعل بكل الأكياس فى أكثر من بقعة فى الكيس الواحد، وشبيه بهذا الخنجر القلم الحديدى الذى يمسكه تاجر الحبوب، وهو قلم طويل مجوف بسن مدببه، يغرزه فى الجوال ويخرجه فإذا بجوفه قد امتلأ بالحبوب، يفرغها فى كفه ويفحصها. القفاص هو أبرع تجار الأقطان جميعا، إذ هو يعرف حقيقة نوع القطن بمجرد تحسسه للكيس بأصبعه، ومع ذلك يجرى عليه الإختبارات الكثيرة. وهو رجل قصير القامة ضخم الجثة بلغد يلتف حول عنقه الضخم، وعلى أنفه منظار طبى سميك تلمع من خلف عدساته عيون صقرية النظرات. إذا ما أتفق على السعر ودفع العربون فإن رجلا من أتباعه ممسك بكوز من الصفيح

مملوء بصبغة خضراء وفرشاة، يغمسها في الصبغة ويكتب على الأكياس إسم القفاص ووزن الكيس ورقمة، لتجئ عرباته الكميون في اليوم التالى لنقل الأكياس ودفع بقية الثمن..

ليس لأمثالنا قطن نبيعه، فلسنا بفلاحين ولسنا بأنفار وإن كان بعضنا ينحدر من أصول فلاحية صرفة، والبعض الآخر ينحدر من أصول تملية خالصة، ولكن انقلابا خطيرا كان قد حدث لصالحنا فوحد بيننا وبين أهل الأصول كافة في البلدة، ذلك هو انفتاح المدارس لأبناء الكافة وانزواء المصاريف تحت أعقاب الأبواب. فبعد أن كانت العائلات الغنية تسعى إلى المدرسة بواسطة لأولادهم، جرى الخفراء في البلاد وفي حقولها يجلبوننا قسرا وبالقوة إلى المدرسة. فلما أن انخرطنا في سلك التعليم انفتحت أمامنا مغاليق لا حصر لها. كم بذلنا من جهود جبارة، أنا ولفيف من رفاق الحارة والحقل والعرق باليومية في لهيب الشمس، في مقاومة آلام الإنسلاخ من شخصية «النفر» للدخول نهائيا في شخصية «التلميذ»..

شخصية «النفر» رافقت شخصية «التلميذ» سنوات بحكم ضرورة البقاء أحياء نرزق. وهذا القطن الذى بدأت تتدفق بشائره الآن أكواما من الذهب الأبيض كالحليب الرائب، شقينا نحن في زراعته وإنمائه، من حرث إلى بذر إلى رى إلى عزيق إلى نقاوة لطع شهورا طويلة كالحة في لون الملح والقت

والصهد، وتفرحت جلودنا فى جمعه من اطرافه الناشفة المدينة واليومية ستة قروش عمياء لا ترى أبعد من كوبة أرز يأكلها إخوتى فى عشوة، والواحد منا دبر لأبيه كل خمسة أيام كيلة قمح. ذلك ما نفطه دائما في الاجازات الصيفية فيما نحن تلاميذ فى مدرسة البلدة الإلزامية التى انقلب وضعها بعد ثورة يوليو وأصبحت إبتدائية يحصل منها التلميذ على الشهادة الابتدائية فى نهاية السنة السادسة من التحاقة بها، فتساوينا بذلك مع أقراننا الذين التحقوا بالمدارس الإبتدائية فى البندر، مع فارق مهم أنهم كانوا يدرسون اللغة الأنجليزية أما نحن فلم نكن نعرف عنها شيئا..

صارت لنا فى التلمذة أقدمية وفى النفرية مثلها. ما إن علمنا أننا فى نهاية هذا العام سنحصل على الشهادة الإبتدائية من بلدتنا، وأننا سنؤدى الإمتحان بأرقام جلوس أمام لجنة فى بندر دسوق حتى انتفخت أوداجنا، حق للواحد منا أن يحترم نفسه ويكف عن الأشتغال أجيرا باليومية فى الحقول، وعليه أن يدبر رزقه من أى باب آخر يكفيه - ولو قليلا - مؤنة المهانة تحت رحمة الخولة من أبناء الساقطات. من حسن حظنا جاء الإصلاح الزراعى ونحن فى مرحلة الخروج النهائى من شخصية النفر لندخل دخولا لا رجعة فيه فى شخصية التلميذ، إذ تأكد المستقبل أمامنا حلوا كاسحا، فالتعليم قد أصبح بالمجان،

والعمل المحترم قد أصبح متاحا، أصبح لمعرفتك القراءة والكتابة نفعا ماديا تجنى ثمرته، لقد أتيح لطالب فى الإبتدائية مثل «طُلبه الجرف» أن يتوظف ملاحظا للأنفار لدى الإصلاح الزراعى فى موسم نقاوة الدودة، مثله مثل «شكرى افندى» الذى كان معاونا للأنفار فى « وسية أفنديننا ، فتهيأ لطلبه الجرف أن يركب حمارا ، وأن يمضى بين الحقول بجلبابه الزفير ذى الياقة والأساور والسُفرة، ويضع على رأسه قبعة كقبعة الناظر خفاجه، وفوق ذلك يفرد شمسية كشمسية المفتش العام، ويتأبط دفترا مثنيا ينطبع إبطه عليه بختّامه العرق. عليه أن يتوقف لدى كل فرقة من المقاومة، فكلها تابعة للإصلاح الزراعى وتحت إشرافه، ويترجل. عندئذ يتوقف الأنفار على رءوس خطوطهم، فيقيدهم فى دفتر بالإسم مشفوعا بالنظر، ليتأكد لديه أن كل صاحب فدان قطن قد أرسل نفرا. هذا فى الصباح الباكر، وعليه أن يعاود الكرة عند الأصيل، ليتأكد أن كل الأنفار لازالوا موجودين، وأن أحدا منهم لم ينتهز فرصة تقييده لينصرف برشوة الخولى أو تدليس من الباشخولى. ولابد أن يقيد فى دفتره كل مخالفة، ليتولى الإصلاح الزراعى انزال العقاب..

معظمنا بات يطمح فى وظيفة كهذه تعينه على مصاريف السكن والإقامة فى البندر. على الواحد منا، فقط، أن يكمل السنة السادسة فى المدرسة ليكون قد حصل على الشهادة

الإبتدائية، بعدها يحق له أن يلتحق بمرحلة تعليمية أخرى خارج البلدة فى إحدى المدن القريبة..

وهكذا صار علينا أن نتفنن ونتخايل فى الحصول على القرش من سبب شريف. ولقد خدمتنا الظروف أيضا إذ أن ثورة يوليو، التى أصبحنا ننطق اسمها بفصاحة ودقة وفخامة قد نشرت فى أجواء البلاد شعارات جميلة براقة كان يحلو لنا أن ننطقها فى بلاغة وطلاقة كأنها الدليل القاطع الحق على صدق انتمائنا للمدرسة: العمل واجب، العمل حق، العمل شرف. على هذا الضوء استأنف بعضنا العمل نفرا أجيرا كما كان و لكن فى فترة الإجازة الصيفية فحسب. أما البعض الآخر فانصرف يعمل بائعا فى محلات البقالة الكبيرة، أوصبيا لدى الخياطين أو النجارين أو البنائين أو مقاولى الأنفار..

كان علينا أن نسلح وجوهنا بقدر عظيم من «الكلاحة» وغلظة القفا. نسمع الهمس من وراءنا كوخز الإبر المسمومة اللاهبة: «عامللى تلميذ! يروحش يشوف ابوه الجربوع؟!

ما شافش امه اللى من غير لباس؟! قلع البيسه وركب السيسه! يا خى دهده!!»، فعلى كتف الواحد منا أن تكون صلبة ملساء كى تنزلق فوقها سنان الإبر. وإذ نكون سائرين حاملين المخلات تحت آباطنا مليئة بكتب المدرسة وكراريسها، بِسْمتنَا الفلاحى الخشن وربما القذر، يحاول الواحد منا الدخول شيئا

فشيئا ويشق النفس فى سيماء التلاميذ المسمسمة لعله يبدو كالتلاميذ الحقيقيين الذين دخلوا المدرسة عن عمد وسبق إصرار من آبائهم، أيقظتهم أمهاتهم ساهرات مبكرات عارفات، غسلن وجوه أبنائهن بالليفة والصابونة وألبسنهم نظيف الثياب وزودنهم بحلو الطعام والفاكهة، وحيث يوصلهم إلى المدرسة رجال، وينتظرهم فى الدار رجال يسألونهم فى اهتمام مبتهج: «خدتوا إيه النهارده في المدرسة؟!». هم يذهبون إلى المدرسة باحتفال يليق بالمدرسة. أما نحن فقد طلبتنا المدرسة فجئناها خاضعين يسحبوننا الخفراء من أطواق جلابينا حفاة صدئين، بعضنا مبهور راغب متطلع، والبعض الآخر سأمان كاره نادم على يومية كان سيقبضها من حقل الوسية ستة قروش عظيمة، فى مقابل أن يحمل المخلاة كل يوم: ورايح فين؟ رايح المدرسة! وجاى منين؟ جاىْ من المدرسة! يا فرحتى. معظمنا - والحق يقال - كان من المبهورين الراغبين المتطلعين، ولهذا وجب عليهم تهيأة الوجه لكل قذيفة ساخرة يطلقها واحد من زملائنا السابقين فى شغل الأنفار، إذا ما التقوا بنا فجأة فى الشارع ونحن ذاهبون إلى المدرسة فيما هم متوجهون إلى ملم الأنفار..

مجتمع المدرسة كان يرفضنا، ومجتمع الأنفار يهزأ بنا علنا بحكم الدلال والوصال القديم والعشم، وآباء التلاميذ الأصلاء يسلقون أقفيتنا، وحتى العقلاء من أهل القرية كانوا يبدون

الإعجاب بأن نكون من بين التلاميذ ولكن إعجابهم يجئ دائما مبطنا بعدم الإقتناع بأننا سننفع، لأن الطبع يغلب التطبع، ولكن كله على الله ومين عارف؟!.. وكم بذلنا من جهود جبارة في احتمال بذاءات الأولاد الذين هم في عرف أبناء مدارس بحق أى أبناء ناس من غير الأنفار والأجراء، ناس قدرين. وفى الواقع كان شكلنا يبعث النفور حقا، ولكن ما حيلتنا فى ذلك؟

لم يكن على الواحد منا سوى أن يوقظ نفسه بنفسه فى مطلع الصبح، ليطس وجهه بحفنة ماء، ويقضم كسرة، ويلفع المخلاة، وبنفس الثوب الذى كان نائما به منحشرا بين إخوته، وبنفس الطاقية الغبراء، تتصاعد منه روائح حشرات عديدة انفقعت وسالت دماؤها - دماؤه - بين حنايا الثوب وثنيات الخياطة مختلطة برائحة عرق وعفونة، وبأقدام مفلطحة غليظة ربما لا تخضع لمقاييس الأحذية المباعة، ناهيك عن منظر المخلاة التى هى فى الأصل - فى معظمها- بقية من ساق سروال قديم، تعج بالكتب والكراريس كيفما اتفق، ودواة حبر أزرق نملأها كل يوم من قنينة المدرسة لتندلق فوق الكتب والكراريس تنيلها بنيلة، وتصبغ المخلاة..

بكل ذلك ينطلق الواحد منا إلي المدرسة مهرولا بهمة نفر يخشى أن تتجاوزه الأنفار، وبيقظة وانتباه نفر يخشى عصا الخولى ويقيم لها ألف حساب، وبصبر وصلابة نفر يدرك أنه فى

نهاية اليوم سيكافأ بستة قروش عظيمة النفع، حتى ولو تأجل قبضتها إلى مالا نهاية. وكل ذلك - مع ذلك - كان شيئا يبعث علي الفخر الغامض ذلك الغموض المفعم بالآمال العراض..

غير أننا كنا نشعر بنغصة فى الحلوق حين يتأكد لنا أن جمهرة المدرسين والنظار والمفتشين ينحازون إلى الأولاد الأكثر نظافة حتى ولو كانوا أغبياء حمقى. ذلك أن هؤلاء الأولاد لم يكونوا مصدرا لأى مشاكل، فإذا طلب من كل تلميذ قرشا لأمر من الأمور التى لم نكن نحن نفهمها، جاءوا به جميعاً فى اليوم التالى، وإذا طلب منهم كتاب أو كراس كانوا أسرع من يجئ به. ونبقى نحن فى كل حصه مصدرا للكلام والفضائح والشتائم المفزعه زغلول والعسلى والبصلى وابن الحشاش ولدان معى جمعنا الفقر والعوز لكنه لم يوحدنا على شئ نفعله معا، إنما وحد بيننا التوبيخ فى ساحة الفصل بين كافة الزملاء ونشأت بيننا علاقة عجيبة تقضى - دونما اتفاق مسبق - أن يقول الواحد منا للآخر عن أى سبيل جديد يكتشفه يمكن أن يجئ من وراءه خير. وهكذا نشأت فكرة الاستفادة من موسم القطن.. هى فى الأصل فكرة العسلى، الوحيد الذى لم تعنيه مسألة الفرق بين التلميذ والنفر، إذ يسعى فى الحقول بقية النهار باحثا عن رزقه تحت أقدام الفلاحين الأعيان وفى أعطاف الأرض الغنية المعطاءة، فيعود كل مساء وقد حمل بين يديه

شيئا ياكله أو يبيعه، وإن لم يجد شيئا فليجتث النجيل الأخضر من على شواطئ القنيان فيجمع حزما كبيره يبيعها فى مدخل البلدة للحاج محمود ابو بكر الذى يملك منحلا كبير ومزرعة للأرانب والطيور في مقابل بضعة ملاليم أو أكلة عسل وشكله مثل رأس الفجلة رفيع من أعلى غليظ من أسفل رأسه كرأس الهدهد لكن تخرج منه الأعاجيب أنجبه أبوه بعد بلوغة سن السبعين من أمرأة ضاله من قبائل الغجر فسارت مهمتها العناية به فى كهولته والجرى على رزقه بالخدمة فى بيوت الناس وقد تبعه زغلول فى بداية الأمر واندفعت فى تقليده فتبعتهما أنا الآخر أصبحنا نلتقى كل صباح فنتسلل إلى الحقول التى تم جمع قطنها مرتين فباتت حطبا جافا نجول بين خطوطها نلتقط النتف التى بقيت فى اللوزات، نترصد لوزات كانت فى أسفل الشجيرات لم ينتبه إليها الجامعون ونعود آخر النهار مشوهى الأيدي والسيقان بخرابيش اللوزات الجافة وفى يد كل منا منديل محلاوى به حفنة من نتف القطن تملأ قبضتين وكل أملنا أن نجمع فى نهاية الموسم ما يباع لقاء بريزة أو بريزتين.

المحتويات